حكايات الجنية الزرقاء

ليديا تشارسكايا

ترجمة آية حسن حسان عناني

حكايات الجنية الزرقاء

تأليف
ليديا تشارسكايا

ترجمة
آية حسن حسان عناني

مراجعة
حسام بيومي محمود

هنـــداوي

حكايات الجنية الزرقاء

ليديا تشارسكايا

Сказки Голубой феи

Lidia Charskaya

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونديسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٤ ٣٧١١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الروسية عام ١٩١٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

افتتاحية	٧
الحكاية الأولى: الأميرة جليد	٩
الحكاية الثانية: الأوبي المسحور	١٧
الحكاية الثالثة: الملك في الصورة الملونة	٢٥
الحكاية الرابعة: جِنيَّة في بيت الدُّب	٣٥
الحكاية الخامسة: ساحر الجوع	٤٣
الحكاية السادسة: ابنة الملكة حكاية	٤٩
الحكاية السابعة: ثلاث دمعات للأميرة	٥٧
الحكاية الثامنة: دول-دول ملك بلا قلب	٦٥
الحكاية التاسعة: النجمة العجيبة	٧٧
الحكاية العاشرة: حقيقة جاليا	٨٣
الحكاية الحادية عشرة: مملكة المرح	٩٣
الحكاية الثانية عشرة: نرجس الطحَّان	٩٩
الحكاية الثالثة عشرة: القفاز الحي	١٠٧
الحكاية الرابعة عشرة: سيف الملكة	١١٣
الحكاية الخامسة عشرة: هدية الجنية	١١٩
الحكاية السادسة عشرة: حسناء	١٢٥
الحكاية السابعة عشرة: دوق الحيوانات	١٣٣
الحكاية الثامنة عشرة: حكاية إيفان الذي بحث عن السعادة	١٣٩

افتتاحية

الشمس والربيع والأَجَمة الخضراء ... رائع، كل شيء رائع!

لكن، بمَ يهمس النهر؟ لا أعرف!

علامَ تتذمر الغابة؟ لا أعرف.

ما الذي تتهامس به الفراشات والجنادب؟ أيضًا لا أعرف.

لكن كل شيء رائع! نعم رائع؛ كما لو أنني عدت في الثالثة من عمري وأني أجلس لأشاهد مُربِّيتي تصنع إكليلًا من زهور البابونج البيضاء.

أريد أن أصادق الشمس والنهر، وحتى الغابة المتذمِّرة التي تُصدر الضجيج، ولا شيء غير الضجيج. لماذا وما سبب هذه الضوضاء؟ لم يعرف أحد، ولن يعرف أحد أبدًا.

مهلًا! ما هذا؟ هل هذا طائر جاء من بين الأشجار ولمسني بجناحه، أم إنها فراشة اختارت أن تستقر على كتفي؟ نظرت، ثم ابتسمت ...

لا! ليس طائرًا ولا فراشة. إنها جِنِّية زرقاء صغيرة ومرِحة. لديها جناحان فِضيَّان خلف ظهرها، وشعر مُجعَّد خفيف مثل الزَّغب. أعرفها. إنها جنية الهواء الأزرق وسماء الربيع، جنية الشمس الصفراء وعطلات مايو.

«مرحبا أيتها الجنية الزرقاء. ما سبب زيارتك؟»

ابتسمت الجنية.

ودائمًا ما تبتسم؛ فهي جنية سعيدة بلا أحزان.

«جئت لأخبرك عن ضوضاء الغابة، وجَرَيان النهر، وما يُغنِّيه العندليب، وعن الربيع. سوف أحكي لك كيف تعيش المِلكات في سعادة وشقاء، وكيف تستمتع الجِنيَّات الصغيرة. وعن الملوك القُساة والرُّحماء، وعن السحرة الطيبين، عن الناس المساكين وعن المخادعين، وعن أشياء أخرى كثيرة سوف أخبرك عنها. وأنتِ أيتها الكبيرة أخبري الصغار بها.»

«لكنني أعرف الحكايات. أعرف العديد من القصص القديمة التي كانت تخبرني بها مُربِّيتي بجوار المدفأة.»

ضحكت الجنية، وبدا تأنيبها مثل الغناء وهي تقول: «أيتها الخرقاء! إنكِ تعرفين حكايات البَشر، ولكنني سوف أخبرك بالقِصص التي تخبئها الغابة العجوز والنهر الهادر والشمس الصفراء؛ تلك القصص التي أحضرها النسر على جناحيه، والتي جعلت الدب يُزمجر في بيته. سوف تعلمين منها كيف حصلت الجنيَّات الصغيرات مثلي على صوتهن الرَّنَّان. أنصتي! فقط أنصتي!»

تمتمت الجنية وهمست ورنَّ صوتها وعلا شيئًا فشيئًا، وقد سمعتُ منها كل شيء ... كل شيء.

الآن أعلم بماذا تهمس الغابة.

وعمَّن يثرثر النهر.

ولماذا تصدر الرياح تلك الضوضاء.

ولماذا ترسل الشمس أشعَّتها الذهبية.

كيف يعاني البشر، وكيف تستمتع الجنيات، كيف يعيش الملوك والمِلكات.

الآن أعرف الحكايات التي أخبرتني بها الجنية. إنها حكايات كثيرة ... كثيرة جدًّا. أعتقد أنني نسيت بعضَها.

ما أتذكره سوف أحكيه. وما نسيتُه سوف أطلب من الجنية الزرقاء أن تعيد روايته. لذا سامحوني.

الحكاية الأولى: الأميرة جليد

على جبلٍ عالٍ مرتفع، تحت السماء، وبين الثلوج المترامية، انتصب القصر البِلَّوري للقَيصر صقيع. القصر مبني من أنقى أنواع الجليد، وكل ما بداخله، بدءًا من الأرائك العريضة، والكراسي ذات الذراعين، والطاولات المنحوتة، والمرايا، وانتهاءً بالثُّرَيَّات المعلقة في السقف، كلها من الجليد.

الأب القيصر ضخم وكئيب. حاجباه رماديان معلقان فوق عينيه، وعيناه تصيبان كل من ينظر إليهما بالبرد القارس. لحية القيصر بيضاء بالكامل، بداخلها بريقٌ مثل الأحجار الكريمة.

لكن أجمل من اللحية الملَكية، أجمل من قصره العالي، أجمل من كل الكنوز، بناتُ القيصر الثلاثة، الجميلات الثلاثة، الأميرات: عاصفة، وبرد، وجليد.

تتمتَّع الأميرة عاصفة بعيون سوداء، وصوت رنان يمكن سماعه بعيدًا في الوِديان. الأميرة جليد دائمًا سعيدة، ترقص وتُغني طوال اليوم.

الأميرة الوُسطى بَرد، ليست أقل جمالًا من أختها الكبرى، هي فقط فخورة ومغرورة، لا تقول كلمة طيبة لأحد، ولا تومئ برأسها لأي شخص. وهي نحيلة وذات خدود وردية، راضية تمامًا عن جمالها، دون أن تفتح قلبها لأي شخص.

لكن الأخت الصغرى الأميرة جَليد مختلفة تمامًا؛ فهي ثرثارة ومرِحة. إنها فتاة رائعة؛ حتى عندما يراها الملِك تلمع عيناه بالحنان، ويعتدل حاجباه الرماديان، وترتسم ابتسامة لطيفة وحنونة على وجهه. القيصر يحب ابنته ويدلِّلها كثيرًا، حتى إن الأميرتين الأكبر سنًّا تشعران بالإهانة والغضب من القيصر بسبب ذلك.

تقولان بحسد: «جليد هي المفضَّلة لدى والدنا.»

فالأميرة الصغرى وُلدت بجمال نادر، جمال لا يمكن العثور عليه في مملكة الجليد بأكملها.

شعرها الموج من الفِضة النقية. العينان مثل الياقوت الأزرق والماس الثمين. الشفاه قِرمزية مثل زهرات الوادي، لكن هي نفسها رقيقة وهشَّة، مثل تمثال ثمين من الكريستال.

عندما تنظر جليد إلى شخص بعينيها الزرقاوين المُشِعَّتين، فإنه يتأهَّب لوهبها حياته من أجل نظرة أخرى.

تعيش الأميرات بسعادة في البرج العالي. خلال النهار يرقصن ويلعبن ويستمعن إلى الحكايات الرائعة للأميرة الكبرى عاصفة، وفي الليل يذهبن للبحث عن الفهود والغزلان.

وبعد ذلك، في جميع الجبال والوديان، يرتفع ذلك الضجيج والضوضاء؛ ما يجعل الناس يندفعون خوفًا منه، ويهربون من الجبال ومن الغابة إلى منازلهم.

يُسمح للأميرات بمغادرة المنزل ليلًا فقط. خلال النهار لا يجرُؤْن على الخروج من البرج؛ لأن القيصر وبناته الجميلات لديهم عدوٌّ خطير رهيب.

هذا العدو هو الملك شمس، الذي يعيش في مكان عالٍ، أعلى من قصر القيصر صقيع، ويرسل جيشه من الفِتيان الأشعَّة بين الحين والآخر إلى مملكة الجليد. بين الحين والآخر يرسل فتًى من فتيان الأشعة ليكتشف، وليعرف كيف يهزم عدوَّه الذي لا يُقهر؛ الملك صقيع. عداؤهما قديم. فمُنذ شُيِّد القصر البِلَّوري على الجُرف، حين بدأ النحل يطير بحثًا عن الزهور في الوديان، حين أزهرت الورود في الغابة وفي الحقل، نشأت هذه العداوة بين القيصر صقيع والملك شمس. ليست عداوة من أجل الحياة، لكن من أجل الموت.

يراقب القيصر صقيع كل شيء بصرامة، حتى لا يدخل الملك الماكر بطريقةٍ ما مسكنه الملكي، ولا يحرق بناته، وقصر الجليد الكريستالي ذاته، بنيرانه القاتلة.

يقف حراس الليل والنهار حول القصر الملكي، ويؤمَرون بصرامة لضمان عدم دخول أيٍّ من محاربي أشعَّة الملك شمس إلى هناك. وتُمنع الأميرات منعًا باتًّا من مغادرة القصر خلال النهار، حتى لا يلتقين بالملك عن غير قصد.

ولهذا السبب، يومًا بعد يوم، بينما يتجول القيصر الرهيب حول ممتلكاته وممتلكات الآخرين، تجلس الأميرات الجميلات في البرج يضعنَ قلادات من اللؤلؤ، وينسجن خيوط الماس، ويؤلفن الحكايات والأغاني الرائعة. وعندما يحل الليل، وتهدأ النجوم الذهبية في السماء، ويظهر قمرٌ صافٍ من وراء الغيوم، يخرجن من الغرفة البِلَّورية ويقفزن إلى الجبال ليطاردن الفهود والغزلان.

لكن ليس كل الأميرات يطاردن النمور والغزلان، ويعدُدن النجوم، ويغزلن خيوط الماس، ويؤلفن الأغاني الرائعة والقصص الخيالية.

وها قد حان وقت الزواج من الأميرات.

دعا القيصر بناته الثلاثة وقال لهن: «أيْ بناتي! لن تبقين للأبد تحت جناح والدكم في منزله. سأزوجكن من ثلاثة أُمَراء وسيمين من بلادنا، ثلاثة أشقاء. أولًا الأميرة برد؛ سأمنح الأميرة برد ذات الخدود الحمراء الأميرَ زمهرير. إن لديه ثروات لا توصف من القلائد والحُلي الثمينة. سوف يعطيكِ كنوزًا لا حصر لها. ستكونين أغنى أميرة في العالم. وأنتِ أيتها الأميرة عاصفة، سأمنحكِ الأميرَ ريح زوجًا. إنه ليس ثريًّا مثل أخيه زمهرير، لكنه قوي جدًّا حتى إنه لا يوجد من يضاهيه في كل هذا العالم. سيكون زوجك هو حاميك. اطمئني يا ابنتي.» والتفت القيصر العجوز نحو ابنته الصغرى جليد وأردف بابتسامة حنون: «وأنت يا أميرتي المفضَّلة، سأعطيك الزوج الذي يناسبك أكثر. صحيحٌ أنه ليس قويًّا، مثل الأمير ريح، وليس غنيًّا مثل الأمير زمهرير، لكنه يتميز بلُطف ووداعة لا يوصفان ولا حدود لهما. الأمير ثلج هو خطيبك. الجميع يحبه، والجميع يحترمه. وليس هذا من فراغ؛ فهو يغطي الجميع بحِجابه الأبيض. ترتاح الزهور والأعشاب والشجر تحت حجابه، أسفل بطانية دافئة وناعمة. إنه لطيف ووديع وحنون. والقلب اللطيف الحنون أغلى من كل القُوى والثروات في العالم كله.»

انحنت الأميرتان الأكبر سنًّا لأبيهما، وعبست الأميرة الصغيرة وعضَّت على شفتيها، وتجهَّمت، وتمتمت بصوت حزين: «إنها فكرة سيئة يا أبي القيصر. لقد بحثت عن الزوج لابنتك الحبيبة، لكن لا يوجد ما أُحسد عليه. ما فائدة أن يكون الأمير ثلج لطيفًا وحنونًا عندما لا يستطيع أن يمنحني الملابس الثمينة، مثلما سيفعل زمهرير لأختي برد، ولا يقاتل الأعداء حتى الموت مثل الأمير ريح ويهزم الجميع بقوته. بالإضافة إلى ذلك سيتولى إخوته الأكبر السلطة! يدور ريح حوله كما يشاء، ويمكن للأمير زمهرير أن يقيده بمجرد التلويح بيده، ودون إذنه، ولن يستطيع الأمير المسكين أن يتحرك.»

قال القيصر وقد عقد حاجِبَيه الرماديين: «بل هذا جيد! الأمير ثلج أصغر إخوته، وطاعة الإخوة الأكبر من شِيَم الأُمراء الشباب.»

لكن الأميرة لم تقتنع.

قالت: «أنا لا أحب الأمير ثلج يا أبي، لا أريد الزواج منه!»

غضب القيصر جدًّا. وارتفع صوت الانفجارات من اليمين واليسار، وهدرت الأنهار الجليدية وأصبحت الأرض باردة. اختبأت الحيوانات جميعًا في جحورها من الخوف، وتجمَّد النَّسر الذي كان يُحلق فوق الجبل بينما يرفرف بجناحيه وسقط.

رَعَد صوت القيصر صقيع على ابنته الصغرى وقال: «ماذا تعرفين أنتِ يا جليد؟ هل تريدين أن تجدي زوجًا بنفسك؟ إياك أن تتجرَّئي على إظهار العناد! اذهبي إلى غرفتك واستعدي للقاء خطيبك في المساء كما يليق. لقد دعوت الأُمراء الثلاثة إلى القصر الليلة.»

بكت الأميرة بمرارة، لكنها لم تجرؤ على عصيان الأب القيصر، وخفضت رأسها وانطلقت إلى بُرجها.

جلست الأميرة في الزاوية تذرف الدموع الفضية من عينيها الزرقاوين، وعلى الفور كانت هذه الدموع تتحول إلى قطرات ماسية جميلة على خديها.

جمعت الأميرة دموع الماس في حفنة، ونظرت إليها وفكرت: «ها هي الكنوز التي يجب أن أجمعها الآن؛ لأن خطيبي لا يملك شيئًا، ويجب أن أصنع ثروة لنفسي من دموعي.»

يا للأميرة البلهاء! لم تكن تعلم أن الثروة المادية ليست هي التي تشكل السعادة الحقيقية.

وفجأة رأت الأميرة أن الأضواء الساطعة تتلألأ في كفَّيها بين دموع الألماس. رفعت رأسها في خوف، فرأت صبيًّا وسيمًا ينظر من خلال نافذة غرفتها؛ فتًى ساطعًا ومبتسمًا للغاية بشكل لم ترَه من قبل.

قالت الأميرة، بينما تبكي وتركض إلى النافذة: «من أنت؟!»

أجابها: «أنا خادم لملكٍ شابٍّ، شديد مثل النهار، قوي مثل نسر الجبل، وغني مثل الأمراء الثلاثة مجتمعين.»

قالت الأميرة مندهشة: «أغنى من أبي؟ ومن الأمير زمهرير؟»

قال الصبي ساخرًا: «وماذا يمثل هذا الأمير زمهرير أمامه؟! سيكون مثل شحَّاذ أمامَ سيدي.»

سألت الأميرة الجميلة: «ما اسم ملكك؟»

قال الصبي بفخر: «اسمه الملك شمس.»

بمجرد أن نطق ذلك الاسم، ابتعدت الأميرة عن النافذة وصرخت وغطت وجهها بيديها، ثم قالت في رعب:

«اخرج! ابتعد! أنا أعرف من أنت! أنت الفتى شعاع، أحد أولئك الذين أرسلهم الملك شمس لشَنِّ حرب على مملكتنا. كيف تجرَّأت وتمكنت من الدخول إلى هنا والحراسُ حول قصرنا؟»

ابتسم الفتى شعاع وقال بعينين لامعتين: «كل الحراس الآن مشغولون بالتحضير للحفلة الراقصة. حراسك يا جليد انتشروا في البلاد لدعوة الضيوف. لقد استفدتُ من هذا، وكأصغر خُدَّام ملكي، توغلت في بُرجك. ماذا تقولين أيتها الأميرة جليد؟»

ضربت الأميرة الأرض بقدمها وقالت: «سأخبرك بشيء واحد! ملكك هو عدوُّنا اللدود، وسأنادي الحراس الآن، وسيأتون راكضين ليأخذوك.»

قال الصبي شعاع بصوت هادئ: «لا تستعجلي يا أميرة! حسنًا ماذا سيحدث بعد أن يمسكوا بي؟ سوف ترقصين مثل ماعز في الحفلة مع خطيبك ثلج، هذا إذا سمح له كبار الأمراء زمهرير وريح بالرقص. وبعد ذلك، أنت يا أجمل الأميرات سوف تتزوجين الأمير الفقير، أخاهما الأصغر، وستعيشين حياة طويلة دون رفاهية أو قوة أو ثروة. وفي هذه الأثناء ستشتهر أختاك بسبب زوجيهما. إنهما تنتظران الثروة والسلطة.»

قالت جليد: «آه، أنت تقول الحقيقة يا شعاع، تلك هي الحقيقة.»

وتَدلَّى رأسها الجميل.

نظر إليها الصبي شعاع لفترة طويلة في صمت. وعلى وجهه ابتسامة ماكرة.

ثم قال بصوت لطيف: «لا تحزني أيتها الأميرة الجميلة! لا تتعجبي لدخولي برجك. لقد جئت إلى هنا لأعرض عليك هذا الخاطب النبيل، إنه غنيٌّ جدًّا؛ لدرجة أن أختيك ستنفجران من الحسد عندما تسمعان به. هل تَودِّين أن تكوني زوجة سيدي الملك شمس؟»

تجمدت الأميرة جليد في حالة رعب عندما سمعت هذا. لم تستطع نطق كلمة واحدة لفترة طويلة، وعندما تكلمت مرة أخرى، ارتجف صوتها من الإثارة والخوف.

قالت: «لا، لا. الملك شمس هو عدونا. إن والدي القيصر يُخفينا عنه بكل الطرق الممكنة.»

ضحك شعاع بصوت مرتفع وقال: «وهل تصدقينه أيتها الأميرة الصغيرة؟ كل هذا هراء، ملك الشمس خير ملوك العالم. إنه لطيف وحنون، مثل الأم الحنون. إذا كان القيصر صقيع لا يريدك أن تقابليه، فذلك فقط لأنك أنت وأختيك عندما تَرَينَه سوف تعرفن أن سيدكن ووالدكن القوي أضعف بكثير من الملك شمس العظيم.»

قالت الأميرة بهدوء وهي تفكر: «فقط؟! لكن لِمَ يتصارعان؟»

ضحك شعاع مرة أخرى وأجاب: «لماذا؟ سوف تعرفين الآن! ملك الشمس يحبك ويريد الزواج منك، ولكن والدك يرفض. لا يريد أن يكون صهره أفضل منه.»

قالت الأميرة بهدوء: «فهمت الآن، فهمت كل شيء ... وإذا ذهبت للملك شمس فهل سيخيط لي نفس الفساتين والأزياء التي سيصنعها الأمير زمهرير لأختي برد؟»

قال الصبي شعاع بثقة: «أجمل بمائة مرة، وأكثر ثراءً، يا ملكتي، يا أميرتي!»

قالت جليد بفرحة: «حسنًا إذَن، أنا مستعدة لأن أكون زوجة ملكك. يمكنني أن أتخيل كيف ستحسدني أختاي، والأب القيصر نفسه عندما يروننني أغنى وأنبل ملكة في العالم!»

وقفت الأميرة جليد بفخر وألقت نظرة على الصبي شعاع، كما لو كانت ملكته بالفعل.

قال شعاع وهو ينحني: «هذا رائع جلالتك، يا ملكتي المستقبلية. كنت أعرف أنكِ أذكى أميرة في العالم وستعرفين قريبًا أولئك الذين يتمنون لك التوفيق بصدق.» وأضاف بابتسامة رقيقة: «والآن، هل ترغبين في المجيء معي؟»

سألت الأميرة بخوف: «أين؟»

قال وهو ينحني مرة أخرى: «إلى عالَم الملك شمس يا مولاتي!»

لقد أحبت الأميرة جليد حقًّا هذه المعاملة النبيلة. كانت تُحب الإطراء.

صفَّق الفتى شعاع بيديه، وفي لحظة ظهرت أمامها عربة خفيفة بلون الفجر، منسوجة من بتلات الورد، حملتها نحلتان عملاقتان.

قال الصبي شعاع: «هيا بسرعة أيتها الأميرة. يجب أن نركب العربة خلال دقيقة واحدة. وإلا فإن حيواناتنا من مملكة الشمس سوف تتجمد في مملكة الصقيع.»

لم يُضطر شعاع لتكرار ندائه؛ فالنبل والقوة والثروة التي تنتظرها في المستقبل القريب جدًّا جعلتها تقفز بمرح وبسهولة إلى العربة الوردية، وانطلقوا.

رأى حراسُ قصرِ القيصر صقيع المذهولون العربةَ وشعروا بالخوف.

دقوا جرس الخطر، لكن العربة كانت قد ابتعدت بالفعل وبداخلها الأميرة. صادفتهم الجدة زوبعة وهي تلف نفسها من رأسها إلى أسفل قدميها بوشاح أبيض، وحاولت سد الطريق عليهم بعصاها وصرخت: «احذري أيتها الأميرة، لا تسمعي مديحه! أطيعي والدك. عودي! عودي!»

لكن شعاع نظر إلى وجه المرأة العجوز وضحك، واندفعت العربة بأقصى سرعة إلى الجبال.

في هذه الأثناء اختفت الأنهار الجليدية البيضاء والثلوج، وكانت رائحة الدفء تتسلل إلى الأميرة. وأمامها ظهرت حديقة غنَّاء فاخرة.

رأت الجنياتِ هناك يرفرفن في الهواء رقيقات كحلم. لمع شعرهن الطويل الذهبي وابتسمت شفاههن القرمزية. كانت فساتينهن الخفيفة المنسوجة من بتلات الورد والزنابق من أكثر الألوان رقة. واندفعن نحو الضوء، وهن يرقصن في الهواء مع حفيف خفيف لأجنحتهن المضيئة، التي بدت فضية تحت أشعة شهر مايو.

وعندما رأوا الأميرة قُلن بأصوات رقيقة واضحة مثل الفلوت:

الجنية الأولى: «يا لها من فتاة جميلة!»
الجنية الثانية: «ليست جميلة على الإطلاق! في مثل هذه الحرارة تبدو كأنها قطعة من الثلج!»
الجنية الثالثة: «عيناها مثل بحيرة زرقاء!»
الجنية الرابعة: «أعينُنا متعددة الألوان، نبدو أفضل بكثير!»
الجنية الخامسة: «ليست جميلة. هل تُقارن بجمالنا؟»
الجنية السادسة: «إنها ثقيلة وخرقاء، ولا تستطيع أن تدور في الهواء مثلنا.»
الجنية السابعة: «مجرد جليد لا مكان له في مملكتنا الرائعة.»
الجنية الثامنة: «جليد قبيح، ولا شيء غير ذلك.»

ثم صاحت كل الجنيات معًا: «جليد في مكان خاطئ! جليد في مكان خاطئ! جليد في مكان خاطئ!»

أرادت الأميرة المسكينة جليد البكاء من الحزن والاستياء. لكن عينيها الزرقاوين لا تعرفان الدموع. قلبها أصبح أكثر برودة. لقد امتلأ بازدراء الجنيات الصغيرات بسبب قسوتهن معها، وابتسمت حتى كشفت عن أسنانها. وقالت بفخر وبصوت مرتفع: «آها، تضحكن الآن مني، أبدو لكُنَّ سيئة وسخيفة، لكن عندما أكون مع سيدكن، زوجةً للملك شمس، سوف تنحنين وسوف ترَينَ كل ما أفعله جميلًا.»

وكما لو أنها كانت تتوقع بالفعل انتصارها على الجنيات الساخرات، سارت الأميرة جليد بفخر أمامهن، وأصابتهن بالبرد من الرأس إلى أخمص القدمين.

صرخت الجنيات الرقيقات واقتربن بتهديد: «أوه، جليد مقرف، ماذا تقولين؟»

لوحت الأميرة جليد بيدها لتُبعد أجنحتهن من أمام وجهها.

وفجأة اندلعت أصوات غامضة في العالم المُشرق. جاءت الآلاف من العثِّ المتعدد الألوان في اتجاهات مختلفة. ظهر قطيع من طائر القُبَّرة في الهواء الأزرق وغنى في انسجام تام.

«ما هذا اللحن الجميل؟!»

لم تسمع الأميرة جليد مثل هذه الأغنية في جبالها الجليدية. غناء أختها برد أسوأ بمائة مرة من رنين طيور القُبَّرة.

ظهر عدد كبير من الفِتيان الأشعة، وكوَّنوا صفَّين منتظمين ومُنمَّقين في المرج.

همست الجنيات المرحات وهن يتأهبن تحسبًا لسيدهن الشاب: «الملك شمس قادم! الملك شمس قادم!»

وفجأةً أشرق كل شيء دفعة واحدة بشكل رائع في العالم المضيء؛ حتى إن الأميرة جليد أغلقت عينيها بشكل لا إرادي. كان هناك كثير من اللمعان والضوء في كل مكان مما يؤذي عينيها.

وفجأةً ظهر شاب ذو شعر ذهبي على عربة ذهبية ذات جمال لم تره من قبل. الضوء في كل مكان. حتى إن شعره وعينيه وملابسه تتألق وتلمع. على شعره وضع تاجًا ذهبيًّا جاء منه النور، مما أضرَّ بالعيون بشكل مؤلم. تجمعت حاشية كاملة من الأولاد الأشعَّة حوله.

جثت جميع الجنيات على ركبهن أمام عينَي الملك. وصعدت الأميرة جليد بفخر إلى الأمام. ألقت نظرة متعجرفة على حشد الجنيات، ونظرت بجرأة إلى الملك الوسيم وقالت: «بنات الهواء السخيفات والصغيرات اللاتي تجرَّأن على السخرية مني، أنا الأميرة العظيمة، حبيبتك المستقبلية. عاقبهن أيها الملك شمس، عاقبهن في الحال!»

رفع الملك عينيه إلى الأميرة.

قالت الأميرة جليد بانتصار وهي تشير إلى الجنيات: «الآن سترين! الآن سترين! أنا عروس الملك شمس، ويجب أن تنحنين لي بصفتي ملكتكن المبجَّلة.»

وأرادت إضافة شيء آخر، لكنها توقفت فجأة.

تحركت الأشعة من العيون الذهبية لملك الشمس، وحفرت مثل الإبر الساخنة في وجه جليد.

انطلقت صرخة عالية من صدرها، والتوت ساقاها، وأغلقت عينيها، وسقطت على ظهرها شاحبة كالموتى.

وتحت النظرة الحارقة لملك الشمس، ذابت جليد بسرعة.

وعلى الجبال بين الأنهار الجليدية، بكى الملك العجوز «صقيع» من الحزن عندما علم بوفاة ابنته. حزِن كلٌّ من عاصفة وبرد كثيرًا على الأخت الجميلة.

ذابت جليد، ماتت، انتهت، أحرقها شمس بعينيه الذهبيتين. لم يكن هناك أي أثر لها عندما أمر الملك شمس الجنيَّات ساخرًا: «غنين وارقصن. سوف تكون نهاية القيصر صقيع قريبة. سوف أنتصر على عدوِّي.»

وطارت الجنيَّات فرحات بالأغاني في كل الاتجاهات ينشرن الأخبار السارة، واستقبل الكثيرون البشرى بابتسامة في انتظار ملكِهم الحبيب المشرِق.

الحكاية الثانية: الأوبي المسحور

كان لساموراي غنيٍّ نبيل ابنةٌ اسمها هانا (الساموراي هو اسم الفرسان اليابانيين القدماء مثل بويار).[1] كانت موسمي هانا (موسمي تعني فتاة في اليابانية؛ مثل المودموازيل الفرنسية أو فراولين الألمانية) ذات عينين سوداوين جميلتين، وشعر لامع، وصوت رقيق ولطيف.

كانت موسمي هانا تتمتع بروح طيبة، وثَمة حكاية رائعة عنها في اليابان.

سمعتُ هذه الحكاية من نسر رمادي عجوز طار إلى صخرة بالقرب من جبل فوجي المقدَّس، بالقرب من مدينة يابانية كبيرة.

غالبًا ما كان النسر الرمادي العجوز يطير إلى الصخرة العارية بالقرب من شاطئ البحر ويروي القصص الخيالية. وقد حكى في المرة الأخيرة عن الفتاة هانا ابنة الساموراي.

حفظت حكاية النسر الرمادي القديم وسأقولها لك من أول كلمة إلى آخر كلمة.

كانت موسمي هانا في الخامسة عشرة من عُمرها. خمسة عشر عامًا فقط. عندما تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، سيأتي والدها، الساموراي النبيل، إلى زارا، إلى زارا كبيرة دافئة — وزارا تعني الغُرفة باللغة اليابانية — وفقًا للعُرف المتَّبَع في اليابان، وسيُحضر لها أوبي. هل تعرف ماذا تعني كلمة «أوبي»؟

إنه حزام. حزام عريض منسوج من حرير ملون أو وردي، رقيق وجميل، مثل صباح مشرق أو كقطعة من الفجر الوردي فوق بلدٍ نائم. مع خيوط ذهبية تنحدر من طرفَي الحزام.

---

[1] بويار هو لقب نبيل، كان يُستخدم قديمًا في المقاطعات الروسية والبلغارية ومولدوفيا وصِربيا.

الفتيات اليابانيات يعرفن أهمية الأوبي. فكلما كان أصل الفتاة أكثر نُبلًا، كان تصميمه أكثر روعة وأناقة. جميل، رائع، عليه أزهار وطيور ومراوح مطرَّزة، لا يمكن أن يكون لعامة الناس؛ فهم يلبسون أكثر الأحزمة تواضعًا. لكن بنات الساموراي الأثرياء والنبلاء وكبار الشخصيات يتفاخرون بالأوبي الحريري غالي الثمن.

وكلما كانت الفتاة اليابانية أكثر نبلًا، كانت أكثر فخامة وثراءً، تتحدث عن النبلاء، عن المناصب الفخرية لأسلافها، وعن قربهم من عرش ميكادو نفسه؛ الإمبراطور الياباني.

لطالما حلمت موسمي هانا بمثل هذا الأوبي. يجب أن يكون لونه ورديًّا ناعمًا، مثل انعكاس الشمس عند شروقها على السطح الأزرق للبحر. يجب أن يكون فريدًا وخفيفًا، مثل تنهُّد اللوتس، وليِّنًا وناعمًا، مثل بتلة الأُقحوان الملكي؛ نبتة اليابان الحبيبة.

كانت موسمي هانا تأمل أن يكون لديها مثل هذا الحزام. كان والدُها رجلًا نبيلًا وغنيًّا للغاية، ولا يمكن لابنته إلا أن تمتلك أوبيًا فاخرًا وباهظَ الثمن. في كل مرة تحدثوا فيها عن الأوبي، ذكَّرت هانا والدها بأنها تريد أن يكون لها حزام أقل قليلًا من أوبي الإمبراطورة نفسها.

مرَّ عامٌ.

هاج البحر وأظلم، ثم هدأ، وبحلول الربيع استعاد الهدوء واللين والجمال.

ازدهرت زهرة اللوتس في الوديان، بيضاء ورقيقة وكأنها شفافة، مثل خدود الفتيات الجميلات. بلغت موسمي هانا ١٦ عامًا.

مع أول شعاع من أشعَّة الشمس، دخل والدها إلى الزارا وأعطاها شيئًا ملفوفًا بعناية في ورق وردي.

«أوبي! أوبي!»

بكت هانا، وسرعان ما بدأت في فك غلاف الهدية.

ليس لديها أدنى شك في أن الأوبي الذي أحضره لها والدها سيكون أكثر فخامةً وأجمل وأكثر ثراءً من كل تلك التي رأتها مع صديقاتها.

ثم ماذا؟

بدلًا من الهدية الأنيقة المتوقَّعة، رأت حزامًا داكنًا بسيطًا للغاية، يربط به عامة الناس فساتينهم المحتشمة. علاوة على ذلك، كان الحزام مصنوعًا من الحرير القديم، وقد انتشر منذ زمن في عدة أماكن، وبدا أشبه بقطعة قماش مُتَّسخة مثل الكيمونو (ثوب نسائي ياباني على شكل مِعطَف كبير) الذي ترتديه أفقر النساء اليابانيات.

صرخت وانفجرت باكية:

«ما هذا؟ هل تسخر مني يا أبي؟»

لكن الساموراي النبيل ابتسم فقط، وأخذ الأوبي بين يديه، ولفه حول الكيمونو الحريري الفاخر لابنته وقال: «هديتي ليست بسيطة ومتواضعة يا فتاة. هذا الأوبي لديه قوًى خارقة. ما دُمتِ تلبسينه ولا تخجلين من مظهره البائس، سيظل خادِمَك المخلص. بمجرد أن تقومي بلفِّ نهاية هذا الأوبي المتواضع بإبهامك، فإن كل ما تريدينه سوف يتحقق في لحظة. والدتك ورِثت هذا الحزام من الساحرة سواتو، التي كانت معلمتها وراعيتها. لكن تذكري؛ في اللحظة الأولى التي تخجلين فيها من الأوبي المتواضع وترغبين في الحصول على أوبي لامع وجميل بدلًا منه، سيفقد قُوته السحرية على الفور ويتحول إلى مجرَّد قطعة قماش لا قيمة لها. هل فهمت يا ابنتي؟»

فهمت هانا تمامًا كل ما قاله لها والدها. كانت هانا فتاة ذكية ومتفهِّمة. والآن لم تعُد حزينة؛ فبين يديها ثروة لا تنضب، وكانت سعيدة تمامًا.

بعد بضعة أيام، تجمَّع حشد من الآنسات الصغيرات المرِحات على شاطئ البحر. جمعن الأصداف الجميلة وزينَّ رءوسهن السوداء بالطحالب الخضراء. كُنَّ يرتدين كيمونوات ملوَّنة وأوبيات فخمة، لا يمكن العثور عليها إلا في اليابان؛ لأن كل هؤلاء الفتيات كُن بنات كبار الشخصيات النبيلة من داي نيبو، كما يُسمَّى البلد الياباني.

فقط موسمي هانا كانت ترتدي حزامها المتواضع المتهالِك الضعيف فوق الكيمونو الجميل.

قالت ابنة جميلة لإحدى الشخصيات المرموقة: «اسمعي يا هانا! أنتِ تبدين كمُتسوِّلة في هذا الأوبي القديم والمتَّسخ والمتهالك. انزعيه وألقِه في الماء.»

قالت ابنه أخت قائد نبيل: «لماذا ترتدين تلك الخِرقة القَذِرة؟»

ثم قالت فتاة تُسمَّى الزهرة الوردية، وهي قريبة الميكادو نفسه: «يبدو أن موسمي هانا فقيرة! ترتدي خرقة بالية بدلًا من الأوبي. هل نسِيَت أنها ابنة إحدى أهم الشخصيات! لا أدري لِمَ ترتدي هذا الحزام، هل هي مغفلة؟»

كان هذا كثيرًا، ومثل أي ياباني، كانت هانا عزيزة النفس. لم تتحمل تلك السخرية. نظرت لصديقاتها بازدراء وأمرتهن بصوت مرتفع أن يضعن كل الأصداف التي وجدنَها على الشاطئ.

هزت الآنسات الرقيقات رءوسهن الجميلة بلا مبالاة، لكنهن وضعن الأصداف التي عثرن عليها في الرمال بطاعة وتَنحَّين جانبًا، وهمسن بعضُهن لبعضٍ بهدوء.

قامت هانا بلف طرف الأوبي بإصبع يدها اليسرى دون أن يراها أحد و... معجزة!

تحولت الأصداف الصغيرة متعددة الألوان على الفور إلى عُملات ذهبية تلمع تحت أشعة الشمس.

قالت هانا بكبرياء: «خذن هذا الذهب وقسِّمنَه بينكن.»

ثم ابتعدت عن الفتيات بزهو ملكة.

بدأت الآنسات الصغيرات في التقاط العملات الذهبية، وألقين نظرات حسودة على هانا. لقد قررن أن موسمي هانا ليست مجرد يابانية بسيطة، بل هي مُشعوِذة قوية.

حل الصباح، الصباح الذهبي المشرق. كانت الشمس تغمُر كل شيء بسعادة، كطفل يلهو، تغمره المياه الكريستالية للمحيط الأزرق.

سارت هانا على طول طريق بين شريطين من حقول الأرز. خلفها حشد كبير من صديقاتها. منذ أن علمن بقوة هانا، لم يتخلَّفن عنها خطوة واحدة. كانت هانا غنية، وكانت نبيلة، وكانت تمتلك قوة خارقة. يضع الناس الثروة والنبل فوق كل شيء، ولا عجب أن حُشودًا كاملة من جيلها يتبعونها.

مَشَين عبر الحقول الواسعة التي أحرقتها الشمس. كانت حقولًا جرداء، لم ينمُ فيها شيء. فَسَدت المحاصيل في البلاد، ولم تنتج الحقول الصفراء التي أحرقتها الشمس ثمرةً واحدة.

وبينما كانت تمر الآنسات الصغيرات بين الحين والآخر ببعض الجياع الفقراء ذوي الملابس الممزَّقة، الذين يصرخون بأصوات خشنة: «أنتن يا بنات الأغنياء والنبلاء! أعطونا بعض الخبز! نكاد نموت جوعًا.»

وكان لهانا قلب طيب ورُوح حساسة.

قامت بتوزيع جميع العُملات الذهبية التي معها على الجوعى والفقراء، وعندما لم يتبقَّ معها ين واحد (الين عُملة يابانية)، قامت بهدوء بلفِّ طرف الأوبي الأسود حول إصبعها، وفي لحظة غُطِّيت الحقول الصفراء بالأرز الناضج.

يحب اليابانيين الأرز، وهو يمثل الغذاء الرئيسي لهم. وها قد صار لديهم الكثير منه؛ لدرجة أنهم يستطيعون إطعام دولة أخرى معهم.

اندفع الجياع لجمع المحاصيل، لكن قوتهم كانت ضعيفة، وأجسادهم هزيلة مُنهَكة من الجوع، ولا يستطيعون الحركة، ولا تستطيع الأيدي الضعيفة العمل.

ثم، مع صرخات تهديدٍ وبقبضات مرتفعة اندفعوا إلى هانا.

صرخوا: «أنتِ ساحرة! ساحرة شريرة! لقد أعطيتِنا طعامًا لمضايقتنا، لكننا لا نستطيع جمعه، وليس لدينا القوة لذلك! سنقتلك!»

كانت وجوههم غاضبة وشرسة، وأعينهم تتلألأ بالكراهية والحِقد، حتى إن الآنسات الصغيرات هربن في خوف، وبقيت هانا وحيدة.

لم تشعر هانا بالحرج على الإطلاق، لفَّت طرف الأوبي مرة أخرى حول إصبعها الوردي، وماذا حدث؟

ظهر حشد كامل من العبيد في وسط حقل الأرز. جمعوا المحصول على الفور في حَزم، وحملوه من الحقل. والآن توقف الجياع المساكين عن توبيخ هانا، وعن تهديدها.

قالوا: «يا ربَّ النور، ارحمها وساعدها، إنها فتاة طيبة.»

واندفعوا بسرعة وراء العبيد الذين حملوا الأرز. هانا تُركت وحدها.

وفجأة سمعت هانا صوت أُغنية جميلة كالحلم. تجمَّدت الموسمي الصغيرة في مكانها. ملأت البهجة رُوحها.

جاءت الأصوات من بُستان قريب، ليس بعيدًا عن مكان وجودها.

وقفت هانا بلا حراك لفترة طويلة، مندهشة، مفتونة بالأغنية العجيبة. تنبعث من الأغنية إما موجةٌ هادئة ولطيفة، أو همسة من حقول اللوتس، أو أصوات «شي» (الآلة الموسيقية المفضَّلة لدى اليابانيين).

اندفعت الموسمي الشابة إلى البستان، ووقفت مندهشة أمام شجرة ضخمة عُمرها مائة عام، يجلس عند جذورها شاب وسيم في ثيابٍ فقيرة لُغنٍّ متجوِّل. كان هو الذي غنى بلطف؛ بحيث كانت الأذن تسمع أغانيه بشكل لا إرادي.

قالت هانا بعيون واسعة وهي تنظر إلى العازف: «مرحبا أيها الشاب.»

أجابها بلطف: «مرحبا يا أيتها الموسمي الجميلة.»

سألت هانا: «ماذا تفعل هنا وحدك؟»

أجاب: «أؤلف الأغنية التي سأغنيها في قصر الميكادو في يوم العيد الكبير، كما تعرفين أيتها الموسمي الجميلة، الميكادو الكبير حاكمنا يريد تزويج ابنه وريثَ العرش. في القمر الجديد التالي ستجتمع جميع جميلات داي النبيلات في قصر الميكادو، وسيختار الأمير من بينهن زوجته. لهذه المرأة المحظوظة يجب أن أغني أُغنية مديحٍ.»

صرخت هانا: «أوه شكرًا لك أيها العازف! شكرًا مقدمًا! سوف يختارني أنا زوجةً له!»

تلألأت عينا المغني الزرقاوين بسخرية. ضحك بمرح وصاح قائلًا: «أنتِ موسمي جميلة جدًّا؛ لكنه سيختار من هؤلاء الفتيات اللاتي لديهن أفخم أنواع الأوبي، أي أنبل الآنسات فقط سيدخلن قصر الميكادو.»

صرخت هانا: «وسأكون بينهن، سوف ترى!»

لكن العازف هز رأسه غير مصدق. لقد وقع في حب موسمي هانا على الفور بسبب جمالها، لكنه لم يعرف على الإطلاق أن أمامه فتاة من عائلة نبيلة للغاية، علاوة على أنها تمتلك مثل هذه القوة لسحرية.

ظل يهز رأسه ويضحك قليلًا، فقالت له هانا: «سأقطف زهرة الأقحوان الأصفر الآن وأعطيك إياها. سوف يتحول الأقحوان الأصفر إلى قِرمزي مثل الدم بمجرد أن أدخل قصر الميكادو. سوف تتعرف عليَّ من خلال هذا الأقحوان. الآن قل لي ما اسمك أيها العازف؟»

قال بلطف: «اسمي هيرو.»

قالت هانا: «وداعًا يا هيرو، حتى نلتقي في قصر الميكادو.»

«وداعًا أيتها الموسمي الجميلة.»

غادرت وظل هيرو يبحث عن المكان الذي اختفت فيه. بدت له مثل شعاع الشمس، ولم يستطع أن يفكر في اللحن من بعدها.

مع أول قمر جديد تجمع حشد كبير من الجميلات النبيلات في قصر الميكادو.

كانت هانا تقف أمام القصر، رأت كيف أن العربات ذات الأعداد الضخمة (الحمالون اليابانيون يحملون الأثرياء على نقالات خاصة تحل محل العربات في اليابان) تتحرك بقماش مخملي أنيق، وقد قفزت منها الآنسات السعيدات مثل الطيور الرقيقة.

صحبهن الحُراس إلى القصر. وهناك التقين بشخصيات نبيلة وأُخِذن إلى غرفة العرش؛ حيث استقبلهن الميكادو نفسه بصحبة ابنه.

أرادت هانا أيضًا دخول القصر، لكن الحراس القاسين لم يسمحوا للفتاة بالدخول.

موسمي هانا لديها أوبي فقير وبسيط، ولا يمتلك مثله إلا عامة الناس.

ثم قامت هانا بلف الأوبي البسيط حول أصبعها، وعندئذٍ صار أمام الحراس المذهولين نحو اثنتي عشرة خادمة ذات شعر ذهبي، وعشرات من عازفي البوق، وحاشية كاملة من الخدم.

احتشدوا جميعًا حول هانا، التي وجدت نفسها على الفور في ثوب فاخر بجمال غير مسبوق، منسوج بالأحجار الكريمة. توَّج رأسها تاج ثمين. ولم يبقَ سوى الأوبي وحده المتواضع دون تغيير، مما أفسد شكل ملابسها الفاخرة بالكامل.

لكن لم يُعِر أحد الأوبي المتواضع أي اهتمام بسبب جمال الفتاة النبيلة.

طالبت بالدخول إلى القصر وهي محاطة بتلك الحاشية الرائعة.

سمح الحراس لهانا بالمرور وخفضوا أقواسهم، وبعد دقيقة ظهرت أمام الميكادو وابنه.

كان المغني هيرو موجودًا بالفعل، لكن هانا لم تنظر حتى إلى العازف المسكين. طلَّتها شغلتها عن النظر حولها. وبالكاد عرف هيرو أن هذه الأميرة الرائعة هي الموسمي الجميلة التي التقى بها مؤخرًا؛ ولو لم يتحول الأقحوان الأصفر المعلَّق على صدره فجأة إلى اللون القِرمزي لَمَا تعرَّف على هانا قط.

قال ابن الميكادو: «من أين أتت هذه الجميلة المذهلة. ربما تكون أميرة نبيلة للغاية. أختارها لتكون زوجتي.»

أومأ الميكادو برأسه باستحسان لابنه.

أمسك الأمير بيد هانا وأجلسها بجانبه وسط همهمة عامة بالموافقة والفرحة. أشار الميكادو للعازف إلى أنه يجب أن يُغني أغنيته تكريمًا للفتاة التي اختارها الأمير. وبدأ هيرو المسكين يختنق بالحزن؛ لأنه وقع في حب هانا وتمنى أن تكون زوجته. بدأ أغنيته. مدح جمال هانا، وأثنى على مظهرها الرائع وحاشيتها الفخمة. قارن عينيها بنجوم الليل، وجلدها الرقيق ببتلة اللوتس، وفمها بأقحوان دموي، وساقيها الصغيرتين بأصداف وردية، وشعرها الأسود اللامع بضباب الليالي الشرقية، الذي لا يمكن اختراقه.

فقط الأوبي الداكن المتواضع لم يمتدحه هيرو. أراد هيرو رؤية حبيبته لابسةً أوبيًا فاخرًا ملونًا، كما يليق بمرتبتها العالية. لم يدَّخر أي فكرة، وغنى عن هذا الأوبي الخيالي الفاخر بشكل رائع، وهو الذي يمتلك كل مقومات الجمال والإبهار.

كانت الأصوات تتدفق مثل الأمواج وتغمغم مثل الجداول وتتنهد مثل الرياح وتذوب في أعماق قلب الموسمي. كان قلب الموسمي — تحت تأثير هذه الأصوات — مليئًا برغبة مُلِحة في امتلاك مثل هذا الأوبي. لمست حزامها بإصبعها بشكل غير محسوس. وفجأة ... أوه، ما هذا الرعب؟!

اختفت الحاشية الأنيقة، واختفى عازفو الأبواق وعازفو التيمباني، واختفت الخادمات ذوات الشعر الذهبي واللباس الأنيق وأغطية الرأس. وجدت هانا نفسها ترتدي ملابسَ متواضعة بدلًا من كونها أميرة أنيقة في مواجهة الميكادو والأمير.

لكن بدلًا من الأوبي الداكن القديم، أحاط خصرها حزام فاخر من ألمع الألوان. كان الميكادو والأمير، اللذان رأيا هذا التحول الغريب، قلِقَين بشكل لا يوصف.

قالا في صوت واحد: «أين حاشيتك يا أميرة؟ أين فستانك الفاخر؟ أين تاجك؟»

أمسكت الموسمي هانا بسرعة بطرف الأوبي لتستعيد عظمتها السابقة بحركة واحدة، لكن للأسف! لم يكن لدى الأوبي الفاخر القوة الخارقة التي كان يمتلكها حزامها المتواضع السابق.

عندها فقط تذكرت هانا كلمات والدها قبل أن يعطيها الحزام المسحور. تذكرت وبكت بمرارة.

قال الأمير بغضب: «مخادِعة! غشاشة! تتجرأ على خداعنا! إنها مجرد عامية بسيطة تتظاهر بكونها نبيلة، اخرجي أيتها الكاذبة!»

بكت هانا أكثر. أدركت أن الأمير لم يُحبَّها هي شخصيًّا، ولكن الجواهر والحاشية التي أحاطت بها. تحركت بخطوات متسارعة إلى المخرج، وغطت وجهها بيديها تحت وابل من السخرية من الضيوف المبتهجين. وفجأة شعرت أن هناك من يمسكها بقوة من يدها.

رفعت رأسها ووجدت هيرو.

قال: وهو يحدق بمودة في عينيها السوداوين: «انتظري! دعينا نخرج من هنا معًا أيتها الموسمي الجميل. لنذهب معًا. سآخذك إلى الزارا الخاصة بي وستكونين زوجتي؛ لأنني أرى روحًا طيبة في عينيك، قلبًا رقيقًا في ابتسامتك! لا أحتاج إلى ملابس ثمينة. أنا معجب بك كما أنتِ. هل تريدين أن تكوني زوجتي أيتها الجميلة؟»

نظرت هانا بصمت وامتنان إلى هيرو وأعطته يدها. لم تكن تريد أن تفكر كيف ستكون ابنةُ ساموراي نبيل زوجة لُغَنٍّ متجول. لكن كان عزاؤها هو لطف روح هيرو.

سمعت هذه الحكاية من نسر رمادي عجوز جلس على قمة صخرية بالقرب من فوجياما. وعندما انتهى من القصة أضاف بهدوء: «كم هم غريبون! كم هم أغبياء هؤلاء البشر!»

النسر الرمادي العجوز كان أذكى منهم. لكن النسر الرمادي العجوز تمنى لهم السعادة.

النسر الرمادي العجوز تمنى لهم السعادة الأبدية.

الحكاية الثالثة: الملك في الصورة الملونة

لقد كان رائعًا. رائعًا جدًّا لدرجة أن الملوك الحقيقيين الأحياء سيحسدونه، بلا شك، لمظهره الأنيق. لديه لحية أنيقة بيضاء رمادية، وشعر رمادي مجعَّد، وعينان سوداوان واسعتان. وعلى رأسه تاج ذهبي. مظهره مظهر الملوك بشكل عام. لم يدخر الفنان أي ألوان لطلاء ردائه الأرجواني والياقة الضخمة من فرو السمور الغالي. نعم لقد كان جميلًا بشكل مثير للدهشة.

لم يكن ملكًا حيًّا، بل كان ملكًا من لوحة مرسومة. ملك أنيق جدًّا ورائع جدًّا ووسيم جدًّا.

كانت الصورة المرسومة موضوعة على نافذة المتجر، وكان المارة يتزاحمون حول النافذة طوال اليوم، مُعجبين بالملك الورقي الملون، الذي جلس على العرش يدخن غليونه بوقار.

كانت تلك تسلية عظيمة للملك نفسه. يحب أن ينظر إلى الناس، وينظر بعناية إلى كل ما يحدث خارج النافذة. وكان ينزعج جدًّا عندما تغلق النافذة ليلًا، ولا يستطيع رؤية ما يجري في الشارع.

ولكن ذات مرة، في أحد أيام الشتاء الشديدة البرودة، لسبب ما، لم تكن النافذة مغلقة بالستائر طوال الليل، وعلى الرغم من تجمُّد الزجاج في النافذة وتجمد الثلج فوقها، فإنه كان لا يزال هناك ثقب يمكن للملك الورقي أن يرى من خلاله ما يدور حوله.

ثم رأى الملك كيف صعدت العربات الواحدة تلو الأخرى إلى مدخل منزل كبير مُغطًّى بقماش لامع، وكيف نزل منها السادة المهمون والسيدات الأنيقات وصعدوا السلالم إلى شقة مفروشة غنية. ذهب السادة والسيدات إلى الصالات المدفأة جيدًا، وظلت العربات بالخارج تنتظرهم في البرد.

من بين أمور أخرى، وصلت عربة، وقفزت منها شابة جميلة وصاحت في الرجل العجوز: «انتظرني!» وسرعان ما اختفت في المدخل. ارتعد الحوذي العجوز من البرد، وانتحى جانبًا.

سرعان ما لاحظ الملك الورقي الشابة في نوافذ المنزل وقد اندمجت في رقصة مرحة مع حشد كامل من السادة يتحركون بانتظام وبهجة في الغرف الدافئة.

وفي الشارع في ذلك الوقت، كان الصقيع يزداد قوة، والحوذي العجوز — الذي كان ينتظر سيدته الشابة — يتجمد ببطء حتى الموت فوق الصندوق. تحول وجهه إلى اللون الأزرق، ويداه ترتعشان وقد سقط اللجام منهما. رأى الملك الورقي كيف مات الشخص البائس تدريجيًّا، وكان الملك مستعدًّا للبكاء من الرعب، لو كان الملوك الورقيُّون يستطيعون البكاء والنحيب.

رقصت الجميلة لفترة طويلة. وعندما بدأ الضيوف، أخيرًا، في الانصراف، واكتشفت أن سائقها متجمِّد، لم تبكي لكنها فقط اغتمَّت وقالت: «أوه، يا له من أمر بائس! كيف يمكنني العودة إلى المنزل الآن؟»

غضب الملك الورقي من أعماق روحه الورقية. فكر قائلًا لنفسه: «أوه! إذا أصبحت ملكًا حقيقيًّا، فلن أسمح بأي شيء كهذا ...» وعلى هذه الفكرة نام الملك.

لكن هذه المرة لم يكن مضطرًّا للنوم طويلًا، ليس لأن الجو بارد جدًّا عند النافذة، ولكن لأنه استيقظ على أصوات عالية بالقرب منه، قريبة جدًّا منه. فرك الملك عينيه الناعستين ورأى حشدًا كاملًا من الناس يرتدون ثيابًا رثَّة، ووجوههم مليئة بالأوساخ والسخام. كانوا عُمال مصنع يسارعون إلى العمل. توقفوا عند نافذة المتجر ونظروا إلى ملك الورق، وحاول أولئك الأقرب قراءة التوقيع الطويل الذي كان أسفل الصورة ليعرفوا اسم الملك. لكن بغضِّ النظر عن مدى صعوبة المحاولة، لم يتمكنوا من تكوين كلمة واحدة، على الرغم من الضوء الساطع للفانوس؛ كانوا أميين ولا يستطيعون القراءة.

قال أحد العُمال بصوت حزين: «لم يعلِّمونا في الطفولة، والأمر صعب في الشيخوخة!» امتلأ قلب الملك الورقي بالشفقة.

قال لنفسه: «سأبني مدارس في جميع أنحاء ولايتي، وأعطي الجميع الفرصة للدراسة بقدر ما يريد أي شخص.»

وفجأةً ارتجف متذكرًا أنه لا يستطيع فعل ذلك. ارتجفت الدموع على الرموش الورقية للملك الورقي. لقد آلمته وجرحته حقًّا فكرة أنه مجرد ملك من صورة مرسومة، وليس ملكًا حقيقيًّا.

في غضون ذلك كان الشارع مزدحمًا. في كل مكان بدأ الناس بالظهور. توقف الكثيرون عند المتجر، وأُعجِبوا بملك الورق ومضَوا.

جاء رجل مهم يرتدي معطفَ فروٍ باهظ الثمن إلى النافذة مع ولدين يرتديان ملابس أنيقة. وهذان الأخيران عندما شاهدا الملك الورقي صرخا بصوت واحد: «أبي، اشترِ لنا هذا الملك!»

سأل الرجل الذي يرتدي معطف الفرو بازدراء: «ماذا؟ هل تريدان صورة بأسلوب لوبوك؟ لا يا أطفال، أُفضل شراء لعبة جيدة لكما.»

أجاب الطفلان بمرح: «نعم، نعم، أنت مُحقٌّ يا أبي! اشترِ لنا لعبة.»

ذهب الثلاثة إلى أبواب متجر قريب. توقفت أمامه فتاة صغيرة نحيفة ضعيفة. كان مظهرها يثير الشفقة، في خِرَقها المجعدة، بوجه هزيل من الجوع والاحتياج، وعينين غائرتين في محجريهما.

توسلت الفتاة بصوت حزين وبائس: «أيها السادة المحترمون، أعطوني من أجل المسيح.»

صاح صاحب المعطف بقسوة: «ابتعدي أيتها الشحَّاذة! كثير منكم يرقد خاملًا ويتوسل الصدقات. ابتعدي!»

قفزت الفتاة للخلف، وتدفَّقت الدموع من عينيها. تمتمت بشيء عن والدتها المريضة التي ظلت دون غذاء لليوم الثالث، وأنها نفسها جائعة، وهمست وهي تبكي، وجلست على الرصيف.

دخل الرجل الذي يرتدي معطف الفرو وأطفاله في ذلك الوقت متجر الألعاب وهم يضحكون ويتحدثون بمرح فيما بينهم.

نظر الملك الورقي إلى الفتاة نصف الميتة، وكان قلبه الورقي يكاد يتمزق إلى ألف قطعة من الألم والعجز. نعم، خاصة من العجز عن فعل أي شيء. كان يدرك تمامًا أنه لا يمكنه فعل أي شيء لمساعدة الفتاة المسكينة؛ لأنه كان ملكًا من ورق.

الورق ولا شيء أكثر. ليست هذه الفتاة وحدها، لكن بشكل عام كان غير قادر على مساعدة أي شخص. إنه غير قادر على القضاء على الحزن والظلم البشري.

فكر الملك الورقي قائلًا في نفسه: «أوه، لو كنت ملكًا حقيقيًّا حيًّا! كم من الخير يمكنني أن أفعل؟!»

أمسك رأسه بيديه وبدأ يطالب القدر؛ إما أن يحرمه تمامًا من العرش والتاج والعباءة الملكية وحتى الحياة، وإما أن يجعله ملِكًا حيًّا، وليس ملكًا من ورق.

ارتطم شعاع القمر بالنافذة ولمس وجهه بلطف. أغرقت الدموع عينَي الملك.

رأت هذه الدموعَ الجنِّيَّةُ الفضية لضوء القمر، الساحرةُ الطيبة لارا، وهي تنطلق بعربتها الزرقاء، فقالت بهدوء: «أول مرة أرى ملكًا يبكي، حتى إذا كانت دموع ملك من ورق. لكن بما أن هذه دموع حب للآخرين فهي تستحق الاهتمام. أنت ملك جيد وربما تحب رعاياك. سأجعلك ملكًا حقيقيًّا على قيد الحياة.»

لمست الجنية لارا عينَي الملك العجوز الباكية بعصاها الزرقاء السحرية. معجزة! اختفت أشعة قمر منتصف الليل الزرقاء، وكذلك اختفى الليل المظلم والأضواء الوامضة في الشوارع، كما اختفت نافذة متجر الألعاب نفسه. انزلق الملك عن الصورة الورقية في لحظة، وشعر كأنه ملك حقيقي. وجد نفسه في قاعة قصر ضخمة، على عرش ذهبي، تحت مظلة أرجوانية، وهناك حشد مطيع من كبار الشخصيات والخدم يتكدَّسون حوله. رداء فرو طويل يتدلى من كتفيه، ولحيته الفضية وشعره الرمادي تفوح منه رائحة عطر باهظ الثمن.

صحيحٌ أن الملك بدا شابًّا جدًّا، وضعيفًا، لا يوصف بين الحاشية الطويلة العريضة البدينة التي أحاطت بالعرش، لكن كل هؤلاء الحاشية حنَوا رءوسهم للغاية وباحترام عندما اعتلى العرش، لدرجة أن قلبه ارتعد فرحًا. أدرك على الفور أن القدر سمع رغبته وجعله حاكمًا جبارًا للبلاد.

ودون تردد أرسل الملك مبعوثين في جميع أنحاء المدينة للبحث عن البؤساء والجياع والمحتاجين والمظلومين، وأمرهم بتوزيع الأموال والملابس الجديدة وكل ما يلزم.

ثم أرسل الملك رُسلًا في جميع الشوارع والساحات ليعلن بصوت عالٍ للناس أنه سيبني مدارس يدرس فيها الناس مجانًا، حتى تصبح حياة الناس بديعة وجميلة. وأرسل الملك أعيانه إلى كل أثرياء المدينة، طالبًا منهم المعاملة الحسنة والحنونة للخدم، ومهدِّدًا في حالة العصيان بغضبه الملكي.

ولم ينسَ الملك الفتاة التعيسة، التي كادت تموت جوعًا على نافذة المحل وأمر بالعناية بها. سمع الناس البشارة بسرور واندفعوا بصرخات الفرح إلى القصر لاستقبال ملكهم.

كان الجميع سعداء وراضين، وراحوا يمجدون الملك الصالح.

لكن الملك نفسه كان أسعد الجميع. كان مقتنعًا أنه فعل كل ما هو ضروري لخير الناس، وبقلب هادئ ذهب إلى الفراش في ذلك المساء. وفي سريره الملكي الفاخر استلقى الملك على فراشه وفكر قائلًا لنفسه: «ما أحسن أن تدرك أنك تستطيع أن تصنع خيرًا للتعساء؛ تلك أكبر بهجة للملوك.»

وفجأةً لامس شيءٌ لطيف كالنسيم شعر الملك الفضي، فرفع رأسه بسرعة. كانت جنيَّة القمر لارا تقف أمامه.

انحنى جسمها الأزرق، الذي كان يتلألأ من خلال أشعة القمر، فوق رأس الملك.

ابتهج الملك كطفل أمامها.

قال بامتنان: «أشكرك يا لارا العظيمة؛ لأنك جعلتِني ملكًا حقيقيًّا، ومنحتِني الفرصة للقيام بعددٍ من الأعمال الصالحة. آملُ أنه من الآن فصاعدًا لن يكون في مملكتي جائع أو مستاء أو حزين.»

هزت الجنية الزرقاء رأسها الجميل ببطء وضحكت بهدوء.

قالت بضحكة لطيفة، بالكاد مسموعة، مثل نغمات القيثارة: «أنت مخطئ أيها الملك، هل يمكن تغيير كل شيء في يوم واحد؟ أيها الملك حتى الآن لا تعرف حتى مقدار الحزن في مملكتك. حتى الآن لم ترَ سوى ما يمكنك رؤيته من نافذة المتجر، وسوى هؤلاء الذين يمكنك أن تنظر إليهم من نافذة القصر الملكي. لكن إذا سافرت أنت، أيها الملك، في جميع أنحاء بلدك، أو على الأقل جزء منها، ستكون مقتنعًا بأن شعبك يموت من الجوع بسبب فساد المحاصيل، والمرض، والعداء بينهم. وما فعلته يبدو لي جزءًا ضئيلًا مما يجب فعله لإسعاد شعبك.»

بكى الملك وقال: «لارا! أقسم لك، غدًا سأبدأ رحلة طويلة. غدًا أبدأ السفر حول مملكتي. أينما أرى الجوع والعوز، سوف أزرع الرضا والفرح! أقسم لك أيتها الساحرة لارا أني سأمسح دموع شعبي!»

جاء صوت جنية القمر الناعم ليقول: «هذا أصعب مما تعتقد.»

رد الملك بعناد: «ومع هذا سأفعل، سوف أفعل.»

أومأت لارا برأسها الفضي نحوه واختفت في ضوء القمر. تُرك الملك وحده. كان يتقلب لفترة طويلة على سريره الواسع تحت مظلة من المخمل، ويتخيل تلك اللحظة الرائعة التي لن يكون فيها أي شخص جائع في بلده.

ومع أول شعاع للشمس، انطلق عازفو الأبواق وعازفو الطبول من القصر على جياد بيض. وخلفهم في عربة ذهبية، محاطًا بحاشية رائعة، ركب الملك. شرع في رحلة طويلة للسفر في أنحاء بلاده مترامية الأطراف والتعرف على حياة الناس. ركب السُّعاة قبل العربة الملكية بفارق كبير، وحذروا كل بلدة وكل قرية وكل مكان ذاهب إليه الملك. وحيثما ذهب كان يقابله في كل مكان أشخاصٌ أذكياء ومبهجون وبُدناء بوجوه فرحة وفساتين باهظة الثمن وأطباق ذهبية، ويقدمون هدايا ثمينة لملكهم.

سأل الملك في حيرة: «ولكن أين الرعايا الجياع؟ أين المتسولون والفقراء؟»

أجابت الحاشية بإطراء: «يا جلالة الملك، في ظل حكمك الحكيم، ملك صالح مثلك، لا يمكن أن يكون هناك فقير ولا جائع في بلدك. بفضل حكمتك وكرمك، انتشر الرخاء والرضا والبهجة في كل مكان.»

ابتسم الملك ابتسامة سعيدة وعاد إلى العاصمة راضيًا.

قال بثقة: «أوه، كانت لارا مخطئة عندما قالت إن هناك متسولين ومساكين في بلدي؛ لقد سافرت إلى نصف البلاد ولم أرَ الفقراء في أي مكان أو المتسوِّلين أو المعتدين. أود أن أرى الجنيَّة لأثبت لها خطأها.»

تحققت رغبة الملك. ففي الليلة الأولى بعد عودة الملك إلى العاصمة، بمجرد ظهور القمر في السماء، دخلت لارا من نافذة غرفة النوم.

قالت ولمست الرأس الفضي للملك بقُبلة خفيفة: «مرحبًا أيها الملك!»

قال الملك: «مرحبًا لارا! جئتِ في الوقت المناسب.»

وبدأ يتحدث بسرعة وبالتفصيل عن أولئك الأشخاص الذين التقى بهم في الطريق وقد تلقَّوا طعامًا جيدًا وكانوا راضين وسعداء في كل المدن والقري والبلدات.

وفجأة سمع ضحكات هادئة مثل حفيف الريح، ورنينًا مثل همهمة النهر. ضحكت لارا، وقالت بين ضحكاتها: «أوه، أيها الملك الساذج المهمِل! كيف خدعوك هكذا بكل سهولة؟! لماذا سمحت أن ترافقك الحاشية؟ بملابسهم اللامعة كانوا يمنعون عنك كل من أردتَ رؤيته! ومن نوافذ عربتك الذهبية لم تشاهد سوى الذهب والديباج، لكنك لم ترَ الحقيقة، ولم ترَ ما كان يجب أن تراه، ولم ترَ حاجة شعبك وحزنه ... أيها الملك، إذا أردت فسأحولك إلى طائر أسود كبير، إلى طائر حكيم، وفي غضون أيام قليلة يجعلك جسمه تطير من البحر إلى البحر فوق جميع ممتلكاتك البعيدة، وبعيون ثاقبة سترى ما تخفيه الحاشية الماكرة في كل مكان عن الملك.»

بكى الملك: «نعم! نعم! حوليني إلى طائر يا عزيزتي لارا. أريد أن أرى احتياجات الشعب وأحزانه.»

حالما أتيح للملك الوقت للتلفظ بالكلمة الأخيرة، شعر فجأةً أن أجنحة ضخمة تنمو خلفه وأن جسده بالكامل غُطِّي بالريش والزَّغب.

وفي الدقيقة التالية، فتحت لارا نافذة غرفة النوم الملكية، وخرج طائر أسود ضخم منها.

طار الملك الطائر لفترة طويلة جدًّا وسافر إلى قرية صغيرة نائية.

كانت الشمس قد أشرقت بالفعل فوق قمم الأشجار، والمياه الكريستالية للنهر، والزهور الملونة وراء الضواحي.

كانت القرية صغيرة وبائسة، صغيرة جدًّا وبائسة جدًّا؛ لدرجة أن الملك الطائر خاف من أكواخها الدخانية وطرقها الملتوية وجدرانها المتداعية.

فكر الملك الطائر وهو يرفرف بجناحيه العريضين: «من الغريب أنهم لم يأخذوني إلى هذه القرية»، وجلس على سطح كوخ متطرف.

فجأةً سمع تنهدات ونداءات حزينة. أدار رأسه ونظر إلى الفناء الصغير ورأى المشهد التالي.

في منتصف الفناء وقف رجل نحيف بائس يرتدي الخرق. بدا أسود ونحيفًا. كانت عيناه تلمعان بشدة وشفتاه ملتويتين.

وقف أمامه شخصان يرتديان زي الخدم الملكيين وقد علا الغضب وجهيهما وقالا بغضب: «هل تفهم؟ هل توافق على تلبية مطلبنا؟ سنلقي بك غدًا في السجن إذا لم تجمع كل الأموال التي لديك في القرية لشراء طبق ذهبي وخبز ومِلح للملك. سيكون في طريقه مرة أخرى قريبًا لتفقُّد مملكته، ومن الضروري أن يُستقبل كما يليق في قريتك.»

همس الرجل البائس: «ولكن من أين يمكنني الحصول على هذا القدر من المال؟ قريتنا صغيرة وفقيرة. ليس لدينا ما نأكله تقريبًا. لم يتبقَّ لدينا سوى أبقار نحيفة وجائعة، وأطفالنا يتغذون من حليبها. إذا بعناها فسوف يموت الأطفال جوعًا.»

صرخ خادما الملك بصوت واحد: «هذا ليس من شأننا! الأوامر أن تجمع القرية بأكملها للملك هدايا مناسبة، وأن يرى الملك وجوهَ رعاياه الراضية والغنية والمبتهجة.»

قال الشخص المسكين: «خذوا كل شيء إذا أردتم، لكنني سأخبر الملك.»

ضحك خادما الملك: «هاهاها. هل تعتقد أننا نخاف من تهديداتك؟ مطلقًا! نحن نعلم جيدًا أنه لن يُسمح لك برؤية الملك. وحتى لو وصلت شكواك إلى آذان الملك، فلن يعرف من هو المحق ومن هو المخطئ. بعد كل شيء فكِّر، الملك لديه ملايين الرعايا! هل هو في وضع يسمح له بالتعامل مع شكاوى كلٍّ منهم؟ وكم منا نحن خدام الملك؟ ألا نستطيع أن نبين للملك أنك مخطئ؟ آه أيها العجوز سيكون الأمر أسوأ بالنسبة لك إذا قررت الشكوى. لن يصدقك الملك أبدًا عندما يرى أن كل الآخرين يحيونه بفرح ورضا.»

أما الملك الطائر، فكأنما مُزقت قطعة من قلبه. الآن أدرك أن الساحرة لارا كانت على حق. لقد فهم الآن بأي ثمن اشترى الشعب لقاءات الملك. طار بسرعة البرق مرورًا بالغابات والبساتين، مرورًا بالقرى والبلدات. وعلى الطريق رأى مدينة كبيرة.

تجمَّع حشد من الناس في ساحة المدينة. مجموعة كاملة من المحاربين اصطفوا على حسب الرُّتب. وقف رجل طويل القامة جانبًا في ثياب جندي، وبجانبه اختبأ حذاءُ طفل صغير. وبجانبه أيضًا امرأة فلاحة نحيفة شاحبة الوجه تبكي.

قالت: «وداعًا يا عزيزي، وداعًا يا حبيبي! تتركنا ليصبح أولادك يتامى، يرسلونك إلى بلد أجنبي للقتال مع أعداء شِرسين. الرب وحده يعلم إذا كنت ستعود أم لا. وحتى إذا عُدتَ فلن تجدنا. سنموت من الجوع دونك يا عزيزي. من سيطعم خمسة أطفال إذا لم تكن هنا؟!»

بكت المرأة الفلاحة بمرارة حتى امتلأ قلب الطائر الأسود بالأسى.

فكر الملك الطائر «لماذا؟ لماذا لا يخبرني المسئولون أن المحاربين يتركون الأطفال فقراء وجياعًا كاليتامى؟» ثم اندفع مُحلقًا بشفقة وغضب.

وفي بلدة صغيرة أخرى، تجمَّع الناس بالقرب من سور الكنيسة. كانوا يتحدثون بصوت عالٍ معًا. سمع أصواتًا مرحة ومبتهجة. تومِض الوجوه المفعمة بالحيوية. قال الملك الطائر لنفسه: «الحمد لله. ليس الكل حَزانى ينتحبون في مملكتي، هناك زوايا يسود فيها الفرح.»

ونزل الطائر الأسود إلى برج الجرس، ومن هناك بدأ ينظر إلى ما يحدث حوله. وفجأة وصلت صرخة عالية إلى مسامعه. بدأ الطائر الأسود يُصيخ السمع. سمع البكاء من منزل صغير متهالك على حافة المدينة. رفرف الملك الطائر بجناحيه، ونزل بجانب المنزل، وأطلَّ من النافذة.

جلست خيَّاطة نحيفة وهزيلة في غرفة بائسة تلتقط شيئًا بإبرة. كانت تحدق في عملها وعيناها حمراوان من الأرق والعمل، ومن وقت لآخر كانت تنظر إلى الفتاة الشقراء النحيفة التي ترقد بجانبها على سرير بائس. كانت الفتاة شاحبة، ذات شفاه زرقاء، وعينين واسعتين. الفتاة الصغيرة محمومة، قد لفت نفسها في بطانية زرقاء، كانت هي الشيء الفاخر الوحيد في الغرفة. كل شيء آخر كان مكسورًا وبائسًا، وينبئ عن حاجة ماسَّة.

الأم تنظر إلى ابنتها المريضة وتبكي. وفجأة انفتح الباب وظهر شخصان على العتبة. قال أحدهما مخاطبًا الخيَّاطة المسكينة: «نحن الخدم الملكي. لقد جئنا من أجل المال الذي يجب على كل مواطن — حسب رغبة الملك — أن يساهم به؛ لأن الملك يريد أن يوزع الصدقات السخية على فقراء عاصمته.»

قالت الأرملة بحزن: «لكنني فقيرة، وليس لديَّ فلسٌ واحد يمكنني أن أعطيه للملك.»

قالا: «في هذه الحالة، يجب أن نأخذ منك شيئًا ونبيعه لتحقيق رغبة الملك.»

ردت قائلة: «اسمع، ليس لديَّ أي شيء، لا شيء باستثناء تلك الأشياء التي تراها هنا، ولن تكسب مقابلها بنسًا واحدًا.»

نظر الدخلاء حول الغرفة البائسة. في الواقع، لم يكن هناك أي شيء ذي قيمة. كراسي مكسورة، طاولة منحنية دون أرجل، خزانة متهالكة؛ هذا كل ما كان هناك. وفجأة لاحظ كلاهما البطانية التي كانت تُغطِّي الفتاة.

قالوا بصوت واحد: «هذه البطانية، سنأخذها ونبيعها ونرسل العائدات إلى الملك.»

نظرت المرأة بعينين مذعورتين إلى الفتاة المريضة ثم حولت نظرها إلى الرجلين وبكت بصوت عالٍ وهي تقول: «أرجوكما لا تأخذوها! سوف تقتلون ابنتي! لقد أمضيت ليالي كاملة في خياطة هذه البطانية من أجل طفلتي. لقد تحسنت منذ أن لففتها بهذه البطانية الدافئة. ستموت، حتمًا ستموت إذا حُرمت منها.»

قال الخادمان: «هراء! أمَر الملك رعاياه بإعطاء ما لديهم. هل نترك بطانيتك ونتجاهل رغبة الملك.»

لم يستطع الملك الطائر المقاومة. قرر أن يصرخ بأنها كذبة وأنه لم يصدر مثل هذا الأمر، وأنه ما كان ليأخذ أي شيء من رعاياه المساكين. لكن بدلًا من الصوت الملكي، لم يُسمع سوى نعيق الطائر، والذي ظل غير مفهوم للخادمَين الملكيَّين …

نزعا بوقاحةٍ البطانية عن سرير الفتاة واختفيا عبر الباب.

صار جسد الطفلة الرقيق ذابلًا من الحمى، يرتجف ويرتجف من قشعريرة البرد. وهُرعت الأم البائسة إلى ابنتها، وشبكتها بذراعيها المرتعشتين وحاولت أن تدفئها بأنفاسها الساخنة.

حلق الطائر الأسود بعيدًا عن النافذة مُطلِقًا آهةً عالية. ارتفع عاليًا، وحلق في مساحة شاسعة وهبط عند نافذة القصر الملكي. هناك سقط جناحاه في الحال، واختفى الزغب، وبدلًا من طائر أسود، ظهر الملك ذو الشعر الرمادي مرة أخرى في منتصف حجرة نومه الفاخرة.

كان شاحبًا وعيناه تحترقان بنارٍ داكنة.

صاح ومد يديه إلى أشعَّة القمر التي ظهرت لتوِّها من وراء الغيوم: «لارا! أيتها الجنية لارا! تعالَي إليَّ.»

ظهرت الجنية لارا.

سمع صوتها الرنان: «هل ناديتني أيها الملك؟»

أجاب بحُزن: «نعم ناديتك. لقد حولتِني من ملك ورقي من صورة مرسومة إلى حاكم حقيقي للبلاد. أردت أن أفعل الخير لبلادي، وأردت أن أجعل الناس سعداء. أردت أن يكون الجميع في مملكتي سعداء وراضين، أن يتغذوا ويلبسوا ملابس لائقة. لكني الآن أرى أنني لا أستطيع أن أفعل كل هذا بمفردي. المسئولون يخفون الحقيقة عني، خدمي يضطهدون الناس ... أيتها الجنيَّة الطيبة ساعديني في أن أصبح ملكًا سعيدًا لشعب سعيد. سأفعل كل ما يتطلبه الأمر. أنا مستعد لأن أعطي حتى حياتي من أجل خير رعيتي.»

قالت لارا الزرقاء وهي تهز رأسها الفِضي: «هذا لا يكفي. حياتك لن تجلب السعادة لرعاياك، ولن تقضي على حزنهم، ولن تجفف دموعهم.»

سأل الملك في يأس: «ماذا أفعل؟ أنا عاجز ولا أستطيع التفكير في أي شيء!»

قالت لارا: «لا تستطيع؟ إذن أنت لا تستحق أن تكون ملكًا حقيقيًّا. هذا يعني أنه عليك فقط أن تكون دائمًا ملكًا ورقيًّا من صورة مرسومة، ولا مكان لك هنا في القصر.»

ورفعت الجنية عصاها ...

وفي هذا الوقت، ارتجف القصر بأكمله بصرخات فرحة محمومة. هذا الحشد من الناس، وعلى رأسهم خدم الملك، اجتمعوا في الشارع لتبجيل ملكهم.

لكن الملك لم يعد في القصر. كان في الصورة المرسومة في مكانها السابق، في نافذة المتجر، وعلى الصورة المرسومة عاد الملك الورقي بشكله السابق الرائع في تاج وعباءة باهظة الثمن.

فرك عينيه الورقيتين وقال بدهشة: «إذن كان حلمًا؟ مجرد حلم!»

وفي الواقع، لقد كان حلمًا. أمضى الملك الورقي ليلته يحلم.

وأكدت ذلك النجومُ الذهبية المتلألئة من السماء للملك. وأضافت النجوم الذهبية شيئًا آخر.

همست بهدوء لدرجة أن الملك الورقي وحده هو الذي كان يستطيع سماعهم. قالت: «نشعر بالأسف للملك الورقي. لقد أراد بشدة وصدق أن يكون ملكًا حقيقيًّا من أجل إسعاد بلده الكبير. الملك الورقي المسكين! لقد نسي أن الرغبة وحدها لا تكفي! لا يمكن لملوك الورق من صورة مرسومة أن يكونوا أسياد ملايين من الناس ... فليكن راضيًا بنصيبه المتواضع في جذب عيون المارَّة بصورة مرسومة بمهارة.»

هكذا قالت النجوم الذهبية ...

الحكاية الرابعة: جِنيَّة في بيت الدُّب

في إحدى ليالي الشتاء القارس، كانت الغابة في حالة سيئة للغاية؛ حتى إنها كانت تبدو منحنية ... الرياح تعصف، وأشجار الصنوبر التي يبلغ عمرها مئات السنين تبكي وتئنُّ تحت وطأة البرد، بينما العاصفة الثلجية مثل ساحرة عجوز تدور في رقصة جامحة. وكان سيد الجليد يراقب العاصفة برضًا وأخذ يفرك يديه ويقول: «أكثر أيتها العاصفة ... حطمي أكثر.»

استمر ضجيج الغابة وبكاء أشجار الصنوبر ... كانت الغابة مظلمة وغير ودودة بالمرة في هذا التوقيت. وقد اختبأت الحيوانات في أوكارها تنعم بالسعادة والدفء، وجميعها محاط بالعائلة والأطفال والمقربين في انتظار انتهاء الطقس العاصف.

وحده الدُّب الرمادي لم يكن لديه أحد. كان الدُّب الأشعث الرمادي وحيدًا تمامًا في هذا العالم ... عاش مثل الناسك، وحيدًا في الغابة دون أن ينظر إليه أحد.

لقد كان كبيرًا ... كبيرًا جدًّا.

وقويًّا ... قويًّا جدًّا.

كبيرًا وقويًّا، إلى درجة أن باقي الدِّبَبة يبدون كأقزام بالمقارنة به.

جميع الحيوانات في الغابة تخاف منه، بداية من الأرانب والثعابين والذئاب، وحتى باقي الدببة تخاف منه أثناء تَجواله في الغابة. يكفي أن يخرج من مخبئه بمشيته المتثاقلة الكسولة، ومظهره الأشعث بعينيه اللامعتين المخيفتين؛ حتى يهرب الجميع أمامه.

والحقيقة أنه لم يكن شريرًا ولم يؤذِ أحدًا قط؛ كل ما في الأمر أنه وحيد دائمًا.

منذ فترة طويلة جاء إلى هنا من غابة أخرى بعيدة، وهكذا انتهى به الأمر في غابة غريبة وبعيدة عن موطنه، وفي وكرٍ جديد حفره بنفسه على عَجَل.

البشر أخذوا منه عائلته؛ زوجته وأطفاله، ثم قتلوهم، حتى هو أصيب بطلق ناري، وظلت الرصاصة مغروسة عميقًا في جلده لتُذكره أن البشر أعداؤه، وهم سبب وحدته وتعاسته.

كره الدب الرمادي البشر كما يكره أي أحد أكثر أعدائه شرًّا، كما كره أيضًا التعامل مع باقي الحيوانات، ولم يُرد أن يصادقهم أو أن يقترب منهم.

على أي حال، كانت الحيوانات الأخرى سعيدة، بينما كان هو وحيدًا ومستاءً، ولم يستطع أن يرى حتى سعادة الآخرين.

في تلك الأيام، عندما كانت العاصفة الثلجية تجعل الرياح تدور وتغني، كان يشعر بالتحسُّن وببعض البهجة في روحه، فكان يدخل إلى بيته ويلعق مخالبه ويفكر كم يكره البشر ... هو الدب الرمادي الكبير الأشعث.

استمر ضجيج الغابة والرياح وحفيف الأشجار الكبيرة، بينما استلقى الدب على سرير الطحالب وأوراق الشجر، وانتظر انتهاء العاصفة حتى يستطيع أن ينام وينسى الغضب والكراهية واشتياقه إلى عائلته.

وفجأة، في بيته شبه المُعتِم، ظهر وميضٌ لشيء ما بشكل غير متوقَّع. تقلبت كتلة زَهرية اللون في الهواء وسقطت عند قدمَي الدب.

انحنى الدُّب ووضع الكتلة الزهرية على مخلبه وقرَّبها إلى عينيه محاولًا فحص ذلك الجسم الغريب.

نظر الدُّب جيدًا وتفحص هذا الشيء، لكنه عبس وقطب حاجبيه وقال: «إنه إنسان! على الرغم من ضآلة حجمه لكنه لا يزال إنسانًا ... نعم ... نعم، ليس أكثر من بَشري.»

وفي الواقع، كان الشيء الصغير الذي يرقد على مخلب الدب دون تنفس يشبه البشر إلى حد كبير، فقط كان بطول الإصبع ولديه أجنحة مضيئة خلف ظهره.

كان الإنسان الصغير بالأجنحة المضيئة على ظهره يبدو ميتًا، ووجهه جميلًا رغم أنه تحول إلى اللون الأزرق من البرد. لكن الدب نظر بغضب إلى المخلوق الصغير ولم يَلحَظ كم هو جميل. أراد تدميره لأنه بدا مثل عدوه الإنسان.

رفع الدب مخلبه الآخر بالفعل استعدادًا لقتل المخلوق الصغير، ولكنه فجأة تنفَّس وأصدر حركة خفيفة شعر بها الدُّب. ولم تمر بضع لحظات حتى تحرك وفتح عينيه وحرك أجنحته المشعَّة التي ملأت المكان فورًا بنور ساطع وأصوات غريبة تشبه قرع الأجراس. كان الدب مندهشًا بسبب هذه الأصوات التي لم يسمعها من قبل في حياته، والتي ملأت

كل زوايا وأركان مسكنه. بدا للدب أن بيته أصبح مُشِعًّا هو الآخر مثل يوم ربيعي صافٍ ورائحة الزهور العطرة تملأ المكان أيضًا، تمامًا مثل الروائح التي كان يشمها في غابته القديمة.

فتح المخلوق الغريب ذو الأجنحة المتألقة عينيه لأقصى حد، وأخذ يحدق، ثم انفجر ضاحكًا وقال: «أهلًا أيها الدُّب المضحك ... يا لك من دب ضخم ... هل تفكر في قتلي ... يا سخيف؟! لا يمكنك ذلك.»

رفع الدب مخلبه ونظر إلى الشيء الصغير بتحفظ. الآن فهم أن هذه جِنيَّة.

قال: «إذن أنتِ جنية ولستِ إنسانًا، أليس كذلك؟»

أجابت: «بلى، بالطبع جنية أيها الأحمق! البشر حجمهم ضخم كما أنهم بُلَهاء، أما أنا فصغيرة ورشيقة مثل زهرة. انظر إليَّ جيدًا، هل تعرف بشريًّا صغيرًا أو نشيطًا مثلي؟»

وأردفت: «ثم إنني لا أخاف الموت مثل البشر ... إذا قتلتني الآن سوف أتحول إلى زهرة، ومنها سوف أخرج مرة أخرى إلى الحياة، وسوف تطير الفراشات حولي، وتغني النَّحلات أجمل الأغاني، وسوف أذهب معها لأستمع إلى قصص المعجزات التي لم تسمعها أبدًا، أيها الدب الرمادي الأخرق. وعندما يأتي الخريف وتذبل الأزهار سأعود جنية مضيئة جميلة كما هو الحال الآن، وأطير بعيدًا في الشتاء إلى البلاد الجنوبية.»

بدأ الدب يهتم بكلام الجنية وسألها: «لكن كيف استطعتِ البقاء في مثل هذا الطقس حتى وصلتِ إلى مخالبي؟»

ابتهجت الجنيَّة وأخذت تضحك وتقول: «في الحقيقة كانت هذه رغبتي ... أردت أن أرى الشتاء والثلج والعواصف وأسمع أغاني الرياح الشديدة، ثم أعود لأتباهى بها أمام أصدقائي؛ لذا اختبأت في تجويف داخل شجرة صنوبر كبيرة، أفكر في كل الإعجاب الذي سوف أناله بعد الشتاء، لكن الجو أصبح باردًا للغاية، باردًا لدرجة أن أطرافي تخدَّرت، فأنا معتادة على الدفء والنور ومباهج الحياة ورائحة الزهور، وأصبح الأمر أسوأ عندما ظهر نقَّار الخشب العجوز، واتضح أن هذا مسكنه فأخرجني من هناك. نقَّار الخشب الأحمق هذا لا يعرف كيف يعامل الجنيَّات الجميلات مثلي.»

وأضافت: «وبعد أن أخرجني وجدت نفسي وسط العاصفة، فحملتني الرياح ودارت بي، ولم أعد أشعر بنفسي ولا أعرف كيف وجدت نفسي في بيتك فوق مخلب أشعث لدُب رمادي.»

سألها الدُّب مرة أخرى: «وأنتِ، ألستِ خائفة من أن آكلك؟»

أجابت: «بلى، لست خائفة ... أنا أجمل وأظرف جنية في الغابة كلها وسوف تندم إذا أكلتني. ثم إنني أحكي أفضل القصص والحكايات، ويمكنني تسلِيَتك. أنت تبدو وحيدًا جدًّا ولا تعرف كم تمتلك الجنيَّة ليانا من حكايات.»

قال: «اسمك هو ليانا؟»

قالت: «نعم ليانا، زهرة مايو، هكذا سماني أبي الروحي. إنه اسم جميل للغاية، ولكن لنعُد إلى موضوعنا. ماذا قررت في النهاية؟ هل سوف تخرجني من بيتك إلى العاصفة الثلجية مرة أخرى؟ أم سوف تلتهمني أيها الدب الرمادي الأحمق؟»

عبس الدُّب وأخذ يفكر. لم يكن يريد التخلِّي عن صوت الرنين المبهج والنور الساطع الذي ملأ بيته، وأيضًا رائحة زهور الربيع الملازمة للجِنيَّة. لكن الجنية الصغيرة تشبه البشر إلى حد كبير، وهو يكره البشر. إنهم أعداؤه الذين وعد بالانتقام منهم لأنهم جعلوه وحيدًا، والآن أتيحت له الفرصة لكي ينتقم من شيء يشبههم؛ هذه الجنية الصغيرة.

وبينما كان الدب يفكر في التصرف الصحيح لم تنتظره الجنية، بل اقتربت منه بخفة وبدأت تحكي له القصص الخرافية. بعض القصص كانت نادرة جدًّا ربما سيد الغابة نفسه ذو اللحية الخضراء لم يسمع بها من قبل.

وعندما انتهت الجنية ليانا من القصص، اختفى التعبير صارم من على وجه الدب، وأضاءت عيناه بفرحة وقال: «يمكنك البقاء في بيتي قدر ما تشائين! سوف تجدين المنزل واسعًا وبه بعض الدفء ومريحًا أيضًا.»

ثم بدأ الدب يتذكر: «كان لديَّ عائلة ذات يوم؛ زوجتي وثلاثة أطفال مرحين وسعداء، ولكن البشر الأشرار أخذوهم بعيدًا عني فأصبحت وحيدًا ومتجهِّمًا أيضًا. كل الحيوانات الأخرى تخاف مني، لكن ليانا لا تخاف مني ... إنها تثق بي ... حتى إنها تقترب من أُذني الخشنة وتهمس لي وتحكي الحكايات، وأحيانًا تلمس أسناني الكبيرة بأصابعها الصغيرة، أو تطير أمام عيني الكبيرة حتى أبتسم وأكُف عن العُبوس، ثم تضحك لأنني عبوس بطبعي ... إنها لا تخاف ولا تخجل مني ... والأهم أنها لا تريد أن تؤذيني. أخذ البشر الأشرار زوجتي وأطفالي الثلاثة، ولكن القدر أعطاني ليانا؛ لذا سوف أعتني بها.»

كانت هذه الأفكار هي التي جعلت الدب يخرج من بيته ويتمشى في الغابة وهو يبدو ودودًا أكثر من العادة، مما جعل الحيوانات الأخرى تتساءل؛ فقال الثعلب للذئب: «ماذا حدث للدب الأشعث؟ إنه يبدو أكثر لطفًا.»

رد عليه الذئب وهو يحرك ذيله في حسد: «نعم بالطبع، سوف تكون لطيفًا وسعيدًا إذا كنت تمتلك مخبأً دافئًا مثله.»

وفي الجانب الآخر، كانت الجنية ليانا قد حولت بيت الدب القاسي والبارد إلى شيء مختلف تمامًا؛ فبجانب الضوء الساطع لجناحيها ورائحة الزهور والقصص الخيالية، جلبت الفرح والحياة واللطف والبهجة لزوايا بيت الدب الوحيد، وفي المقابل كان الدب يعمل بإخلاص وتفانٍ لإسعاد الجنية، وحاول تحقيق كل رغباتها، أو حتى التنبؤ بها، بينما في الحقيقة كانت الجنيَّة تمتلك العديد من الرغبات بالفعل.

وذات يوم، أرادت الحصول على الزهرة التي رأتها ذات مرة في إحدى نوافذ القرية المجاورة للغابة.

ذهب الدُّب إلى القرية وسرق أَصِيص النبات من النافذة وخاطر أن يراه البشر، لكن في النهاية اتَّضح أن الزهرة تحولت إلى مجرد ساقٍ يُرثى لها بأوراق متساقطة، بينما الزهرة نفسها لم تكن موجودة على الإطلاق؛ لقد تلاشت بسبب الشتاء ... شعرت ليانا بالإحباط الشديد، لكن الدب كان عليه أن يجد تعويضًا لها عن الزهرة؛ لذا صنع لها عربة صغيرة من خشب الصنوبر وجلب لها سنجابًا كان قد اصطاده من الغابة ليحل محل الحصان. وهكذا أصبح للجنيَّة الصغيرة عربة جديدة تستطيع أن تمرح بها في كل أرجاء البيت.

لكن أكثر شيء إثارةً للاهتمام هو أن الجنية ليانا علَّمت الدب الرمادي الكئيب أن يرقص أيضًا.

عندما كانت تملُّ من رواية القصص أو الدوران حول البيت مع سنجابها، كانت تجعل الصراصير تغني في الزاوية والدب يرقص إحدى هذه الرقصات الغريبة التي لا يعرفها سوى الدِّبَبة.

رقص الدب كي يُرضي ضيفته الصغيرة. وحتى عندما كان يتعب ويتعرَّق كثيرًا، كانت ليانا تطير إلى رأسه وتلوِّح بجناحيها الخفيفين لكي يشعر بالبرودة. أصبح الوقت في بيت الدب مُمتعًا ونسي الدب أحزانه. ويبدو أنه أحب الجنيَّة الصغيرة، وكان مستعدًّا للتضحية بحياته من أجلها.

وأخيرًا اقترب الربيع وبدأ الثلج في الذوبان، فكانت قطرات الماء تغطي كل شيء، ولم يتبقَّ غير ندفة ثلج واحدة فوق أحد الأعشاب.

رأى الدب ندفة الثلج الأخيرة فأخذها لكي يُريها لليانا. ولكنها عندما رأت بوادر الربيع الأولى تحوَّل لون الجنية المرحة. شحبت وأصبحت أكثر بياضًا من ندفة الثلج التي جلبها الدب. وانعكس الحزن واليأس في عيون ليانا، وطوت جناحيها وجلست في أحد الأركان، بينما كان الدب ينظر إليها خائفًا من حزنها المفاجئ، وسألها: «ما بك يا ليانا؟»

«أوه، لا شيء، لا شيء ...»

قالت هذه الجملة بصوت كافٍ ليجعل قلب الدب يغرق في الألم، لكنه لم يجرؤ على السؤال عن سبب حزنها؛ لأنه كان يخشى إزعاج الجنيَّة الصغيرة أكثر.

مر شهر آخر وامتلأت الغابة بالزهور. لقد بدأ شهر مايو اللطيف وبدأ في نشر البهجة عبر النباتات، فردَّت عليه الحيوانات بالأُغنيات والاحتفال. وكانت أصوات الاحتفال تصل إلى آذان ليانا فترتجف. وفي أحد الأيام عندما سمعت زقزقة أحد العصافير انهارت تمامًا، وظهرت الدموع في عينيها الصغيرتين.

رأى الدب هذه الدموع وقال بحزن: «أعرف أن البشر يبكون دائمًا وبقوة ... لكن الجنيَّات! لم أسمع قَط بجنيات تبكي ... فقط حزن كبير يجلب الدمع إلى عين جنية مثلك ... ربما تريدين أن تكوني حُرة يا ليانا وتريدين الذهاب واللعب مع باقي الجنيَّات بدلًا من البقاء مع دب وحيد مثلي.»

لكن عندما سمعت الجنية هذه الكلمات غرقت في البكاء أكثر: «لا، لا أريد أن أرحل وأتركك وحيدًا، سوف تصبح حزينًا مرة أخرى إذا رحلت ... لقد جعلتْك قصصي وثرثرتي تنسى الحزن ... لا لن أرحل ... لا أريد أن أكون مُنكرة للجميل ... لقد أعطيتني مأوًى عندما لم أملك مكانًا للذهاب إليه، وأنقذتني من الموت متجمِّدة ... لا، لن أتركك يا صديقي لا تقلق.»

كان قلب الدب يقفز من الفرح والطمأنينة، لقد شعر أخيرًا أن العالم به ما هو أكثر من القسوة والظلم.

عرف أنه يحب صديقته الجنيَّة الصغيرة أكثر مما سبق بسبب كلماتها.

واصلا حياتهما بالطريقة نفسها، لكن ليانا لم تعُد تخرج من بيت الدب، ودائمًا ما كانت تحاول سد أُذنيها كي لا تستمع إلى غناء الحيوانات في الخارج. وفجأة ذات يوم، عندما كان الدب مستلقيًا على سرير الطحالب وليانا جالسة بجانب أذنه تهمس بالحكايات، دخلت إلى البيت فراشة زرقاء جميلة وعلى ظهرها جلست جنية جميلة صغيرة تشبه ليانا وكأنهما قطرة انقسمت إلى اثنتين.

اقتربت منها الجنية واحتضنتها سريعًا وقالت: «وجدتك أخيرًا يا أختاه!»

ثم تابعت: «كنت أبحث عنك في كل أنحاء الغابة كي أخبرك بالأخبار السارَّة. غدًا عند ظهور القمر الجديد، سوف تنتخب جميع الجنيات الملكة الجديدة. سوف تحكي كل واحدة منا ما رأته مثيرًا للاهتمام خلال الشتاء، وسوف تصبح صاحبة أفضل قصة هي الملكة. لقد بحثت عنكِ طويلًا لأخبرك بهذا، وفي النهاية أخبرني الفأر أنكِ هنا في بيت الدب ... عليك أن تنضمي إلينا في احتفال الغد.»

وبعدها انطلقت الضيفة عائدة من حيث أتت على ظهر الفراشة. نظر الدب إلى ليانا المستلقية دون حراك في ركن البيت، عيناها مفتوحتان على آخرهما في دلالة على شوق يائس؛ لدرجة أن الدب لم يستطع تحمُّل هذه النظرة وقال لها: «انطلقي يا ليانا، عودي إلى مملكتك ... إننا في شهر مايو، حيث المساحات الخضراء والأغاني والزهور. يجب أن تكوني مع باقي الجنيات الصغيرة الجميلة، وتخبريهم عن صداقتك مع الدب الوحيد القاسي، وحينها سوف يختارونك ملكة لهم؛ لأن قصتك سوف تكون الأفضل والأكثر إثارة للاهتمام ... الوداع يا ليانا ... حلِّقي إلى مملكتك، يجب أن تكون الجنيَّات حرة وأن تعيش بمرح وسط الزهور لا في بيت مظلم ومخيف كهذا.»

أنهى الدب كلماته ثم حوَّل رأسه الأشعث إلى الجهة الأخرى.

استمعت ليانا إليه وكانت تشعر بالأسف الشديد لترك الدب اللطيف التي جعلت نفسها جزءًا من حياته وجعلته ينسى حزنه، لكنها في الوقت نفسه اشتاقت بشكل لا يُقاوَم إلى مملكة الجنيات الصغيرة والنباتات والزهور؛ اشتاقت إلى مملكة الفرح والمرح التي أتت منها.

وبالفعل لم تتردد الجنية الصغيرة كثيرًا، وألقت نظرة أخيرة على الدب، وأومأت برأسها الجميلة إليه، وبسطت جناحيها اللامعين ثم اقتربت برفق من أذنه لتُودعه.

ومع وعيها بالحرية، ورغم وجود ألم في قلبها، طارت بعيدًا مثل طائر يهرب من بيت الدب. اندفعت بسرعة البرق إلى مرج الزهور الذي أضاءه ضوء القمر، في اللحظة التي أنهت فيها إحدى الجنيَّات المرشحة لعرش الملكة المستقبلية قصتها الخيالية على صوت أغنية العندليب.

جلست الجنيَّات الصغيرات حول عرش الملكة فوق زهور البنفسج وهي تصفق للحكاية.

قالت إحداهن: «قصتها أفضل من أي قصة أخرى! يجب أن تكون الحكاية التالية أفضل منها كي تصبح الملكة.»

بعدها ظهرت ليانا وهبطت على زهرة برية كبيرة وأخبرتهن بحكايتها؛ كيف أصبح الدب البَرِّي الرهيب المتجهِّم لطيفًا ووديعًا منذ ظهور جنيَّة صغيرة في بيته، وكيف وقع في حب الجنية واهتم بها ولم يكن يريد أن يفارقها. وفي الختام، أخبرتهن كيف شعرت الجنية بالأسف لترك الدب الوحيد مكسور القلب ... كانت هذه الحكاية جيدة لدرجة أن العندليب صمت مُستمعًا إلى القصة الجميلة.

بكت الجنيَّات الصغيرات وهن يستمعن إلى حكاية ليانا، وبكين أكثر شفقةً على قلب الدب المكسور.

وعندما انتهت من حكايتها، صفق لها الجنيات والعندليب والفراشات.

وفي صوت واحد اختارها الجميع ملكة. أضاءت اليراعات العشب وأضاءت الجنيات الغابة كلها احتفالًا بالملكة الجديدة. كانت ليانا جالسة على العرش وحولها حاشية كبيرة من الجنيات الصغيرات لتحقيق كل رغبات الملكة الجديدة.

لكن الملكة نظرت بحزن إلى الجميع بعيونها الجميلة. تخيلت بيتًا بعيدًا ومظلمًا، وسريرًا غير مستوٍ من أوراق الشجر والطحالب القديمة ودُبًّا وحيدًا، مسكينًا، حزينًا، يفكر فيها هي ... الملكة ...

الحكاية الخامسة: ساحر الجوع

انتشرت الغُرف الضخمة التي يملكها البوبار[1] كورشون على نطاق واسع. البوبار غني ونبيل. لديه كثير من الخيرات في الخزائن، وفي صناديق كبيرة، عدد منها مُخبَّأ بعيدًا في عمق الأرض. دُفن العديد من الأقمشة والمخمل والديباج وفراء السمور والأحجار شبه الكريمة وحبوب اللؤلؤ تحت أغطية الصناديق الثقيلة. وفي جميع أنحاء المنزل، كان خدم البوبار يتنقلون بصمت. لديه كثير منهم. ومع ذلك فهم جميعًا ممتلئون، ويرتدون ملابس جيدة. بالنسبة لهم جميعًا، هناك كثير من الخبز وجميع أنواع الطعام في حظائر ومخازن البوبار.

يحب البوبار أن يرى حوله وجوهًا راضية وسعيدة ومسرورة. وحتى يكون خُدام البوبار سعداء بحياتهم، حتى تبتسم وجوههم بفرح، يمدحون البوبار؛ وحينها لا يدخر كورشون شيئًا من أجلهم ...

يقولون كلْ واشرب حتى تشبع!

يأكل البوبار الكثير، ويأكل خدمه أيضًا الفطائر والزبد، وجميع الكائنات الحية، والدجاج والبط، ويشربون الجعة والهريس والعسل والنبيذ الأجنبي من مائدة البوبار بكثرة، حتى يمتلئوا.

ولكي يأكل البوبار كورشون وعائلته وخدمه ويشربون، يجمع البوبار المال من فلاحيه، الذين منحه إياهم الأب القيصر منذ زمن بعيد. الفلاحون يعملون حتى تتعرق وجوههم، يصنعون الخبز، يعجنونه ويخبزونه ويرسلونه إلى البوبار كورشون، ويرسلون جميع الخيوط والبياضات.

---

[1] البوبار أو البوليار هو أعلى الأفراد رتبة في الأرستقراطيات الإقطاعية البلغارية والموسكوفية والصربية؛ حيث لم يكن يعلوه مكانةً إلا الأمراء.

يعيش البوبار، على يد العمال الفلاحين، في سعادة دائمة. مرة واحدة فقط أرسل البوبار رُسلًا إلى ممتلكاته وقُراه من أجل جمع الجزية المعتادة من الفلاحين، وعاد الرسل غاضبين ومنزعجين: «لم يقدموا أي شيء من أجلك أيها البوبار! لقد استقر ساحر الجوع في قُراك. يقولون إنه المسئول. بسببه لم نجمع أي شيء من رعيتك.»

كان البوبار كورشون متقلِّب المزاج؛ إما باردًا وإما غاضبًا بشدة.

صرخ: «أي ساحر هذا؟! وأي جوع؟! لا أعرفه ... لا أعرفه! أريد كل شيء كما هي العادة، الدقيق والكتَّان والخيوط. كل ما يملكه الفلاحون.»

خاف رُسل البوبار من غضب السيد. إنهم يقفون أمام البوبار بلا صوت، ولا تعرف إذا كانوا أحياءً أم أمواتًا. ارتجفوا أمامه وارتجفوا.

ثم بدءوا يتحدثون مرة أخرى: «لا نستطيع فعل شيء أيها البوبار، هذا مستحيل. استقر ساحر الجوع في قُراك، وها هو يقتل فلاحيك كما لو كان يمسك بخيوط أعمارهم. يجفف حقولهم ويقتل الأبقار والخيول، وقريبًا سوف تطول يدُه رجالك أنفسهم.»

زمجر البوبار: «حقًّا؟! حقًّا؟! هل ساحر الجوع بهذه القوة والجبروت؟»

قال الرسل المذعورون الخائفون من الموت: «قويٌّ جدًّا أيها البوبار!»

سأل البوبار غاضبًا: «قوي لدرجة أنني لا أستطيع هزيمته؟»

الخدم صامتون، يرتعدون من الخوف ويتهامسون بصوت لا يكاد يُسمَع: «ساحر الجوع قوي جدًّا!»

كان البوبار في أوج غضبه حين قال: «حتى إذا كان بهذه القوة، فأنا أعرف ما سأفعله. أيها الخدم، استعدوا للرحلة، احزموا الأمتعة واستعدوا لرحلة طويلة! خذوا كثيرًا من الطعام معكم! أريد أن أجد ساحر الجوع، أتحداه للقتال وأتغلب عليه. إنه بلا قيمة! وسوف آخذ زوجتي النبيلة وأولادي معي؛ دعهم يرون كيف سيقاتل البوبار كورشون ساحر الجوع.»

اضطرب منزل البوبار. أحدث الخدم ضجيجًا. وبدأت السيدة البدينة النبيلة، تتحرك بسرعة. ركض أطفال السيد. الجميع يستعدون للرحلة.

في مطبخ البوبار يتصاعد الدخان بكثافة؛ يجري إعداد الفطائر والأطباق المختلفة للطريق، ويُكدس الخبز والإمدادات المختلفة في العربات والزلَّاجات، وتُملأ البراميل بالبراندي والنبيذ، بحيث يكون هناك ما يكفي للجميع.

إنها ليست مزحةً؛ البيت كله في طريقه للمعركة! نهضوا وتحركوا.

أمام عربة البويار، يركب الرسل الجِياد، ويبعدون الناس عن الطريق. إنهم يحذرون الجميع صارخين بالابتعاد، مما يعني أن شخصًا نبيلًا من البويار يركب العربة.

مر يوم ثم ثانٍ فثالث، ثم أسبوع فثانٍ فثالث.

في الطريق يتوقفون حتى ترتاح الخيول. وفي نهاية الشهر وصلوا إلى ممتلكات البويار. قفز الناس من الأكواخ لمقابلة الضيوف النادرين. لكن يا أيها الإله الرحيم، أي أناس هؤلاء؟ كانوا نحيفين مرهقين.

جلد على عظم، مثلما يقولون ... العيون جاحظة من محاجرها، كلٌّ منهم بعيون بارزة. ترهَّل الجلد الأصفر على الوجه والذراعين. الأصوات تبدو وكأنها آتية من تحت الأرض، صماء، فظيعة.

«مرحبًا أيها البويار الرحيم!»

كانوا يصرخون. لكن صراخهم ضعيف لدرجة أنه لا يصل إلى آذان البويار.

فوجئ البويار وتوجه نحو الجياع المرهقين: «ماذا حدث لكم؟ ما مشكلتكم؟»

أجاب البؤساء: «الجوع هو السبب. يريد قتلنا جميعًا. لم يبقَ فتات خبز. منذ جاء ونحن نتضوَّر جوعًا. ساعدنا أيها البويار، لديك كثير من الخبز والإمدادات في حظائرك. حررنا أيها البويار.»

لم يُحب البويار حديث الفلاحين، وقال إنه لا يريد مساعدتهم، وسألهم إن كانوا جميعًا هكذا؟ لا يمكن إطعام الجميع في النهاية.

كان البويار بخيلًا ولم يعرف كيف يشفق على الناس. قال إنه لم يأتِ في تلك الرحلة الطويلة لإعطاء الفلاحين إمداداته. كل ما انشغل به البويار هو أن يعرف عن ساحر الجوع؛ كيف يجده ويتحداه للقتال، بل يجب أن يربح! يقولون إن الساحر قوي للغاية، ولأشهُر عديدة لم يستطع البويار تحصيل الجزية عن ممتلكاته وقُراه، وبسبب هذا الساحر يعاني خسائر ضخمة.

قال: «لا بد من العثور عليه وإلحاق الهزيمة به بكل السبل الممكنة. إنه عدو شرِس.»

وبدأ البويار يسأل الفلاحين الجياع كيف يجد ساحر الجوع، وكيف يقابله؟

لكن الفلاحين لا يفهمون ما يريده البويار منهم. يقولون شيئًا واحدًا فقط: «ساعدنا يا بويار بحق المسيح!»

ازداد غضب البويار. أمر بإدارة العربة والذهاب إلى قرية أخرى.

التفَّت العربة وسارت عبر الغابة الكبيرة الكثيفة المتشابكة. وبعد انطلاقها أصبح الظلام شديدًا، وأشد ظلمة في العربة المغطاة، كما لو أن الليل معهم داخل العربة. ثم هبت عاصفة ثلجية عنيفة. الرياح والصفير والثلج ملأ كل شيء. لقد عانوا وعانوا. كانوا مرهقين.

صرخ البويار: «توقفوا! سننتظر انتهاء العاصفة الثلجية هنا، وسنرتاح. لدينا إمدادات كافية لثلاثة أيام. بحلول ذلك الوقت، ستكون العاصفة الثلجية قد مرَّت.»

جرد العبيد الخيول.

استراحوا ليوم فثانٍ فثالث، لكن العاصفة الثلجية لم تهدأ. الطريق كله مغطًّى. لا مخرج، والإمدادات التي أخذوها معهم تتناقص شيئًا فشيئًا. وأخيرًا جاء اليوم الذي انتهى فيه كل المؤن؛ لم يبقَ شيء؛ لا فطائر ولا لحوم ولا حتى رغيف خبز واحد. والعاصفة الثلجية تستمر في الدوران والصفير، والمزيد المزيد من الثلج يكتسح الطريق …

يريد الناس أن يأكلوا بشدة، لكن لا يوجد مخرج من الغابة في هذا الوقت. تساقطت الثلوج في كل مكان. بدأ الخدم في القلق والتذمُّر.

«أريد أن آكل أيها البويار. هذا لا يطاق!»

والبويار نفسه يمر بوقت عصيب.

أطفال البويار الذين لم يتلقوا شيئًا لليوم الثالث مرضوا في عربته. الزوجة تتأوَّه وتندفع وتطلب الموت. الابنة الكبرى للبويار كانت تعاني بالفعل من تشنُّجات، وصرخت بصوت رهيب: «أريد أن آكل يا أبي! أعطني بعض الخبز يا أبي! أنا أموت!»

لم يكن البويار بعيدًا عن كلمات ابنته هذه. ضرب رأسه بجدار العربة وبكى بمرارة رافعًا يديه إلى السماء.

قال: «ارحمني يا رب! ساعدني! سأوزع نصف ممتلكاتي على الفلاحين! سأفتح كل مخازني من الحبوب أمامهم! ساعدني! أنقذ زوجتي وأطفالي!»

قال هذا ثم قام من على الأرض، ونظر من نافذة العربة وصرخ.

رأى البويار عند شجرة الخشخاش وحشًا ضخمًا. وجهه رهيب، عظمي، مثل وجه رجل ميت. يتدلى منجل خلف كتفيه، وذراعاه ورجلاه مثل العِصِي.

سأل الوحش الرهيب ضاحكًا: «هل عرفتني أيها البويار؟ أنا ساحر الجوع. الشخص الذي أردت أن تتحداه في معركة.»

تمتم البويار: «عرفتك.»

ضحك الوحش مرة أخرى: «لماذا لا تتحداني في قتال؟ أنا أنتظر. هل لديك سلاح أيها البويار؟ لن تقاتلني بيد خالية. أم تريد أن تهزمني بثروتك يا بويار؟»

أجاب البوبار: «سأحاول إلحاق الهزيمة بك بالإحسان أيها الجوع. بفعل الخير. الآن أعرف كل قوتك!»

وانحنى البوبار كورشون أمام ساحر الجوع.

وكما لو كانت معجزة، هدأت العاصفة الثلجية. ذابت الثلوج وانطلقت زلاجات البوبار على الطريق. عادوا إلى القرى الجائعة، ثم ذهب البوبار بنفسه إلى الفلاحين الجائعين وأعطاهم جميعًا وعدًا رسميًّا أنه سيرسل لهم الخبز والدقيق من حظائره الخاصة.

ووزع كل خزاناته التي معه على الفقراء.

منذ ذلك الحين تغير البوبار كورشون بشكل كبير؛ فهو لا يشفق على نفسه وخدمه فحسب، بل لا ينسى أيضًا فلاحيه، وغالبًا ما يذهب إلى أراضيه، ويطعم الجياع، ويمنح الفقراء بسخاء.

وعلى الرغم من أن خزائن البوبار أصبحت أقل، فإن البوبار صار غنيًّا بحُب الناس وسعادة من حوله.

لم يكن فوز ساحر الجوع أمرًا سيئًا هذه المرة؛ فقد انتهى بمصلحة البوبار ورعاياه.

الحكاية السادسة: ابنة الملكة حكاية

حيث تتشابك أغصان الصفصاف الخضراء، حيث تطن بحيرة الغابة الكبيرة المكتومة ليلًا ونهارًا، حيث تبدو النجوم الذهبية خجولة ولطيفة في الليل، هناك تعيش الملكة حكاية؛ ملكة الحكايات.

كانت الملكة لسنوات عديدة. أصبحت كبيرة في السن، تعيش في العالم منذ أكثر من مائة ألف عام. لكن إذا رأيتها لن تفكر أبدًا أن تلك المرأة العجوز هي الحكاية. وجهها ناعم، شابٌّ، منتعش، وجميل جدًّا؛ لدرجة أن النجوم تُعجب بها، وتصدح أمواج البحيرة حسدًا لجمالها. عينا الملكة حكاية سوداوان وعميقتان ولامعتان؛ حتى إن النظر إليهما يسحرك. خدَّاها أحمران كالدم، شفتاها قِرمزيتان مثل الطيور. وينسدل شعر الحكاية على الأرض مثل موجة ذهبية.

تلبس دائمًا ملابس ملوَّنة أنيقة إما باللون الأحمر الأرجواني وإما باللون الوردي المُزرَق. هناك كثير من الأبيض والأصفر والأخضر في ملابسها. وعلى رأسها إكليل من الزهور؛ زهور عطِرة، حتى إن رأسك يدور إذا اقتربت من الملكة حكاية.

تعيش ملكة الحكايات في أكثر الغابات خضرةً وكثافةً. هناك شيدت قلعة ضخمة وأنيقة. جدران القلعة مزركشة، مصنوعة من أوراق شجر الحور الفضي وخشب البتولا والصفصاف. العرش من نبات أذن الفأر وزنابق الوادي. الحرس اثنتا عشرة شجرة بلوط عملاقة؛ تقف حول قصر الملكة حكاية وتحرس سيدتها الحبيبة.

أثناء النهار تنام حكاية على فراش من الزهور البرية، وفي الليل، عندما تضيء النجوم الذهبية في السماء، تستيقظ حكاية، وتفرك عينيها السوداوين الجميلتين وتبدأ في الكلام. ليس أي كلام. وكأن شخصًا ما يُغنِّي في منتصف صمت الليل. أصوات كلامها المتدفقة بسلاسة أعلى وأكثر وضوحًا. والغابة بأكملها، كل مملكتها الخضراء تستيقظ بعد ذلك

ويلتقون في قلعتها؛ تأتي الحيوانات، والطيور، والحشرات، والبراغيث في جماعات، تزحف، ويُسمع حفيف الثعابين والزواحف من خلال العشب.

الجميع يستمعون ويستمعون.

الحيوانات، والطيور، والزواحف، والبراغيث، تقف بلا حراك لساعات، كما لو كانت مفتونة بالثرثرة اللطيفة لملكة الحكايات.

أوه كم هو جذاب، كم هو مثير للاهتمام كل شيء تقوله لهم! تتحدث كثيرًا، بلا كلل. تتحدث عما يحدث على الأرض وتحت الأرض، في البحار وفي السماء، عن الأرواح الساطعة التي تعيش عاليًا فوق الغيوم، وعن الوحوش المظلمة تحت الأرض وفي الماء. والحيوانات بعد أن تسمع الملكة حكاية، تستلقي بإخلاص عند قدميها، وتنظر إليها الثعابين بعيون رقيقة، وتهدأ الأمواج العاصفة ولا تتوقف عن حسد جمالها الوهاج، وتبتسم النجوم الذهبية بنعومة ومودة من السماء البعيدة. تبتسم وتومئ برأسهم للملكة. وفقط مع أشعَّة الشمس الأولى، تسكت ملكة الحكايات، مُتعَبة وسعيدة، تسقط على فراشها العطري وتنام عليه، مثل طفل هادئ بين ذراعَي مُربِّية.

وتنشر اثنتا عشرة شجرة بلوط أغصانها فوقها لتحمي الملكة من أشعة الشمس والحرارة.

يتمتع كل فرد بحياة طيبة وممتعة بسبب الملكة حكاية في مملكتها الخضراء. الجميع بخير. فقط يوجد شيء حزين واحد يزعج الملكة الجميلة؛ حزين جدًّا! الحكاية لها ابنة؛ الأميرة حقيقة. هل تعتقد أنها جميلة مثل والدتها؟ لا! هل تعتقد أن عينيها مثل عينَي والدتها، تلمعان مثل النجوم وعميقة مثل أمواج بحيرة الغابة؟ لا! هل تعتقد أن وجهها رقيق أحمر اللون، وشفتيها حلوتان وتضحكان باستمرار؟ مرة أخرى، لا.

بقدر ما كانت الأم ودودة وجميلة، كانت ابنتها قاسية مع الجميع وقبيحة.

الأميرة لا تزال فتاة، لكنها تبدو أكبر من والدتها. نحيفة، شاحبة، بوجه امرأة عجوز، بعيون قاتمة، ثاقبة كالبرق، بشعر أسود طويل.

لا أحد يحب الأميرة حقيقة في الغابة الخضراء. الحيوانات عندما تراها تتذمر بشكل مكتوم وشرس. الأفاعي تهمس، وتوجه عيونها الشريرة الصغيرة إليها، وتحاول البراغيث مضايقتها بكل طريقة ممكنة.

كانت الحيوانات والزواحف تتعامل معها منذ فترة طويلة، ولكن فقط من باب حُب أمها الملكة حكاية.

لم تلمس الأميرةَ حقيقة، لكنها تخاف من النظرة الصارمة لعينيها الكبيرتين اللامعتين المرعبتين. عينا حقيقة تجعلك تهرب لعشرات ومئات الأميال. إنهما تحرقان وتخترقان الروح. تعالَ إليهما، حاول؛ لن تقاوم! والأهم من ذلك كله أن هاتين العينين تربكان الملكة حكاية نفسها.

بينما الملكة حكاية تسحر شخصًا ما بقصص رائعة، تنظر الأميرة حقيقة إلى والدتها بعينيها البراقتين، وهكذا تختفي المتعة؛ ترتبك حكاية، وتضل حكاية، وتتعثر الكلمات على لسانها، لكنها لا تخرج من فمها. لا يمكن للملكة العجوز أن تنطق بصوت واحد تحت نظر ابنتها. تلك هي المشكلة.

تزأر الحيوانات، وتصفِّر الأفاعي في وجه الأميرة حقيقة. لكنها لا ترتعب، بل تضحك!

توسلت الحيوانات إلى الملكة: «ضعي حجابًا على عينَي ابنتك، كي لا نراها ولا تحرجنا وتحرجك عبثًا!»

أطاعتهم الملكة. وبأمر منها في عتمة الليل الرقيقة نسج العثُّ بهدوء حجابًا ملونًا على عينَي الأميرة حقيقة من بتلات الورد والياسمين البري.

توقفت عينا الأميرة عن اللمعان كالبرق. لكن لم تتحسن الأمور كثيرًا. تأتي الأميرة حقيقة إلى وليمة الليل، وفي خِضم حكاية الأم، تسحب الحجاب عن عينيها وتُمزقه.

ومرة أخرى تومض عيناها كالبرق، ومرة أخرى تضطرب حكاية الملكة وتتلعثم في كلماتها. وتقول الأميرة ضاحكة: «ليس من السهل هزيمتي!»

ومرة أخرى، تطالب الحيوانات والزواحف والحشرات والطيور الملكة حكاية: «زوِّجي ابنتك يا مليكتنا، في مكان بعيد وراء البحر، حتى لا تتدخل في حياتنا، ونبتهج بسماع صوتك.»

فكرت الملكة حكاية في الأمر. شعرت بالأسف من أجل ابنتها. إنها تحب الأميرة حقيقة بطريقتها الخاصة. من الصعب الانفصال عنها. لكن المشكلة هي أن رعاياها سئموا من حِيَلها، فهي تتعارض مع حياتهم.

إذا أراد الذئب أن يسرق خروفًا من قطيع الراعي، تنظر حقيقة إليه، تومض بعينين كالبرق، ويجد الذئب نفسه خائفًا على بُعد ثلاث قفزات من القطيع. وحين تتشاجر الحيوانات على شيء ما (لا يُعرف أبدًا سبب تلك الخلافات) تظهر حقيقة مرة أخرى. إنها لا تخجل، ولا توبخهم، بل تنظر فقط. أوه كيف يحدث هذا! يصيب قلوبَهم حزنٌ غريب! ودون إنهاء للنزاع، تتفرق الحيوانات إلى مخابئها. ولا شك أن كل ما تفعله يتحدى والدتها.

فكرت الملكة حكاية وقررت تزويج ابنتها.

أرسلت الجنادب الخضراء والفراشات ذات الأجنحة الخفيفة إلى جميع أنحاء العالم لخُطَّاب ابنتها.

وصل الخُطَّاب.

ولم يأتِ واحد ولا اثنان، بل عشرات الخاطبين دفعة واحدة. رجل وسيم وراء رجل وسيم، ورجل عظيم وراء رجل عظيم. جميع الملوك والأمراء في الخارج. إنهم كثيرون؛ الأمير بطل، والأمير نصر، والملك قوة، والملك سلام، والأمير صداقة، والأمير حب، والأمير مجد، وغيرهم كثير؛ بحيث لا يمكن ذكرهم جميعًا.

وقف الغُراب الأسود عند مدخل القصر وصاح بأعلى صوت لديه مُشِيدًا بفضائل الأميرة حقيقة. صاح الغراب قائلًا إن الأميرة حقيقة لديها كل شيء؛ القوة، والجمال، والفضيلة.

وفي القاعة الأولى للقصر، التقت الملكة حكاية بنفسها بالخاطبين ورحبت بهم قائلة: «أهلًا بكم أيها الضيوف الأعزاء، أهلًا بكم.»

صوت حكاية مثل الفلوت، حلو، وعيناها ساحرتان.

الملوك والأمراء وهم ينظرون إلى الملكة الجميلة يهمسون بابتهاج: «لا يمكن أن يكون لهذه الجميلة ابنة قبيحة، أرينا ابنتك أيتها الملكة.»

ظهرت الأميرة حقيقة. وقفت في منتصف القاعة وخلعت الحجاب عن عينيها. يا إلهي! ما تلك النظرة؟ جميع الخاطبين وقعوا في وقت واحد، وعندما عادوا إلى رشدهم هربوا من قصر الملكة حكاية.

قهقهت حقيقة وهي تقول: «ها هي الحقيقة ... الملكة القادمة! أين هم الخطاب؟ أين ذهبوا؟»

استاءت الملكة حكاية أكثر؛ فقد لا تتمكن من تزويج ابنتها. لقد أخاف مظهرها كل الخطاب وهربوا إلى الأراضي البعيدة، فماذا تفعل بها الآن؟

وفجأة تكتشف حكاية أن خاطبًا جديدًا قادمٌ إليهم؛ إنه ملك. لكنه لا يريد الإفصاح عن اسمه، والأكثر إثارة للدهشة أنه يرسل رسلًا من الطريق ليخبر الملكة ألا تقلق بشأن مظهر ابنتها، وأنه يعرف مدى سوء ابنتها، وعن عينيها الرهيبتين. لكنه لا يزال يفكر في الزواج منها، ما لم ترفض الأميرة نفسها.

أمرت الملكة أن يُعرَف اسم الملك، لكن الرسل، الذين يحتفظون بصرامة بسر الملك، لم يكشفوا عن اسمه، بل قالوا فقط إن ملكهم صارم وشديد للغاية.

شعرت الملكة حكاية بالحماسة والانزعاج، وبذلت قصارى جهدها لمقابلة الملك القادم بأفضل شكل.

فكرت الملكة حكاية «إذا لم تكن حقيقة جميلة لنُري قوتها وممتلكاتها للملك؛ فسأقوده إلى ممالك حكاياتي الخيالية، سأفتنه، سأسحره بقصصي، وسوف يرى قوتي ويتزوج ابنتي من أجل قوة أمها!»

ألبست ابنتها وزيَّنتها بالورود، واحتياطًا، غطت عينيها بحجاب جديد منسوج حديثًا، وذهبت معها لمقابلة الملك الغريب الزائر على شاطئ البحيرة. في منتصف الليل، سمعوا أصوات الأبواق، ورنين الأجراس، ورأوا عربة فاخرة، وفيها يجلس ملك مجهول، طويل القامة وفخم ووسيم، لكنه يضع ضمادة سوداء على عينيه.

تعجبت الملكة حكاية، وتساءلت: «من يكون هذا الخاطب؟» لكنها لم تقل شيئًا.

فكرت قائلة لنفسها: «إنه نبيل ومهم؛ يمكن معرفة كل شيء من هيئته. أما الضمادة فمن يأبه لها؟» أرادت أن تزوج ابنتها للملك، وألقت تعويذتها عليه على الفور.

بدأت الملكة الحكاية في سردها. رفرفت شفتاها الورديتان. وأثناء هذه الثرثرة، بدأت هي وابنتها الأميرة والملك الزائر بالنزول ببطء وهدوء إلى بحيرة الغابة العميقة والمضطربة.

قالت الملكة للضيف: «هذه مملكتي.»

وثرثرت مرة أخرى، وهمست بقصص رائعة بفمها الوردي.

وأثناء سماع صوتها الساحر وهي تتكلم بلطف، مثل صوت القيثارة، انشقت مياه بحيرة الغابة، ووقفت كجدارين على كلا الجانبين وشكلت ممرًّا إلى القصر البلوري الفاخر. ركض حشد كامل من حوريات البحر لمقابلتهم، وانكبوا جميعًا على وجوههم أمام الملكة حكاية. استقبلها الجميع. وكانت زنابق الماء البيضاء ذات الوجوه الجميلة تحت الماء تقدم أكوابها لأولئك المارين؛ حيث توجد جميع أنواع الحلويات والأطعمة الشهية. بدت الموسيقى غير مرئية في القصر البلَّوري، ودخلت الملكة حكاية مع ابنتها حقيقة وخطيبها.

وبمجرد دخولهم نهض القيصر روح الماء نفسه من عرشه، وتشابكت العذارى الجميلات الخلَّابات في رقصات دائرية متناغمة، وبدأن يرقصن رقصة خفيفة ورشيقة.

قالت الملكة منتصرة: «هذه مملكتي! هل رأيت كم أنا قوية وقديرة؟»

انتظرت ضيفَها خطيب الأميرة حقيقة ليجيبها، لكن الخطيب لم يكن لديه وقت للرد.

ضحكت الأميرة حقيقة الشقية بصوت عالٍ وسحبت الحجاب من فوق عينيها. اختفى القصر البلوري، واختفت الأطباق الموجودة في أكواب زنابق الماء، واختفت حوريات البحر الراقصة. كل شيء اختفى مثل الحلم.

وقفت الملكة مع ابنتها وخطيبها على ضفة بحيرة في الغابة، وكأن شيئًا لم يحدث، كانت مياهها المظلمة راكدة مثل أي بحيرة. كانت الملكة غاضبة من ابنتها، وأرادت توبيخها أمام الضيف، لكن الأمر كان أسوأ من ذلك. فماذا لو تراجع الملك عن فكرة الزواج! ابتسم الملك فحسب، وبدا للملكة حكاية أن الضمادة على عينيه تزحزحت قليلًا عن عينه اليسرى، وظهر جزء من وجهه.

توترت الملكة حكاية أكثر، وألقت الحجاب مرة أخرى على عينَي الأميرة حقيقة، وبحرارة شديدة بدأت تروي مرة أخرى. وتكشفت الصور الرائعة لقصتها مرة أخرى أمام الخطيب الضيف. ومرة أخرى بدا صوت الملكة حكاية مثل اللحن الجميل، وتحت هذه الأصوات الساحرة، جاءت عربة فضية تجرُّها الخيول البيضاء.

قالت الملكة وهي تقفز في العربة: «تفضل أيها الملك، سأريك مملكتي.»

وعندما جلس الجميع في العربة انطلقت نحو السماء ... نحو النجوم الذهبية.

وهناك رأوا قلاعًا رائعة، وأشياء غريبة؛ حدائق زرقاء كلها مغمورة بضوء قِرمزي فضي رائع. بعض المخلوقات الغريبة المجنَّحة، شفافة مثل أشعَّة القمر، تحيط الآن بالعربة. النجوم الذهبية التي بدت وكأنها فوانيس مشتعلة من الأرض، تحولت هنا إلى قصور وقلاع ذهبية ضخمة. وفي إحدى هذه القلاع توقفت الخيول الفضية. اندفعت المخلوقات الشفافة المجنحة برشاقة وذكاء في انتظار وصولهم، وساعدتهم على الخروج من العربة الفضية. دعت الملكة ضيفها لدخول القصر الذهبي. صعد فوق العتبة بهدوء، وامتلأت القاعات الضخمة بكنوز لا حصر لها.

كانت الأحجار الكريمة والماس والياقوت والزمرد والذهب مكدسة هنا. تدفق الماس مثل نهر ثمين. ويحرس كل كومة مخلوقٌ مجنح على شكل تنين رهيب.

قالت الملكة حكاية مخاطبةً ضيفها: «ها هي كنوزي. هل يمكنك أن تجد مثلها على الأرض؟»

ولكن هنا مرة أخرى مزقت يد الأميرة حقيقة النحيلة الحجاب عن عينيها و... واختفى كل شيء في لحظة، ووجدت الملكة الغاضبة والخطيب الضيف والأميرة حقيقة أنفسهم في غابة مظلمة عند مدخل قلعة الملكة حكاية.

ابتسم الملك الغريب مرة أخرى، ومرة أخرى بدا للأم وابنتها أن الضمادة انزلقت أكثر قليلًا عن عينيه.

ألقت الملكة حكاية نظرة صارمة على ابنتها الأميرة حقيقة، وغطَّت وجهها على عجل بالحجاب، وبدأت قصتها مرة أخرى.

تدفقت الأصوات العجيبة والغريبة للملكة حكاية مرة أخرى، هذه الموسيقى الساحرة والحلوة أعادت الغابة إلى الحياة. تحولت أشجار البلوط الضخمة إلى فرسان عمالقة، وأشجار الحور المرنة إلى حوريات، وجذوع الأشجار إلى أقزام، والزهور إلى أقزام وسيمين أنيقين. أضاءت اليراعات في الأدغال، وأضاءت الغابة بأكملها. صدحت الصراصير بين العشب، وتوافد مُغنُّو العندليب إلى قلعة الملكة حكاية وأطلقوا صفيرًا، وغنوا أغنية جميلة، أغنية لم تكُف الملكة حكاية عن سردها. لفت موسيقى صوتها قاعة القصر الضخمة ذات الإضاءة الزاهية. خلفها العمالقة والحوريات والجان والأقزام. كل شيء يرقص.

فتحت أزهار الليل أعينها وحدقت في الحفل السحري بفضول جشع.

وعادت الملكة حكاية إلى ضيفها مرة أخرى وقالت: «هل ترى أيها الملك، كل شيء جيد ومبهج في مملكتي. انظر كيف يستمتع رعاياي، وكم هم سعداء! وانظر كم عدد العمالقة الجبابرة وأقزام الغابة والجان الخاضعين لي!»

ولكن بمجرد أن أتيحت الفرصة للملكة حكاية لتقول هذا، مزقت الأميرة مرة أخرى الحجاب عن عينيها، وفي ثانية واحدة تحول الفرسان العمالقة إلى أشجار بلوط ضخمة، وتحول الأقزام إلى جذوع أشجار، والحوريات إلى أشجار حور نحيلة، والجان إلى زهور بسيطة. فرغت القاعة الأنيقة في الحال، وانطفأت أنوار اليراعات، وسكت مطربو العندليب. اختفى كل شيء كأن لم يكن. كما اختفت العصابة عن عينَي الملك. والآن صار يقف أمام الأميرة حقيقة ووالدتها بكل روعته وجماله. استقرت عيناه القاتمتان على وجه حقيقة النحيف والقبيح، ونظر لعينيها المحترقتين.

وبصوت رقيق ولطيف قال: «عزيزتي الأميرة حقيقة، لقد عرفتك منذ فترة طويلة. كنت أبحث عنك في كل العالم لفترة طويلة! والآن فقط وجدتك، ولن أتركك بعد الآن، سآخذك معي. أنتِ لا تنتمين إلى هنا، حقًّا. سوف آخذك إلى الأبد إلى عالم الإنسان العظيم؛ ستعملين على تكوين صداقات مع أشخاص هناك، وتحيطينهم برعايتك ومداعباتك، وسيصبح الناس أكثر لطفًا وأفضل بقربهم من الملكة حقيقة.»

وبشكل أكثر حنانًا ولطفًا، أضاء المظهر المظلم للملك. والغريب أنه كلما نظر إلى عروسه، أصبح وجه الأميرة حقيقة القبيح أجمل وأجمل. وعندما أخذها من يدها وقادها إلى عربته ليبتعد بها إلى الأبد، لم تكن الملكة حكاية قادرة على التعرف على ابنتها بعد ذلك؛ فقد صارت عيناها القاتمتان تتألقان بنور رائع، واحمرَّ خداها. لقد غيرت السعادة ملامحها وأعادت إحياءها تمامًا. أصبحت الأميرة حقيقة جميلة؛ بل أجمل من الملكة حكاية نفسها.

ودَّعت الأميرة أمها وقالت بينما تجلس بجانب خطيبها في العربة: «من أنت أيها الملك الجميل؟»

قال الملك بصوت مرتفع وواضح: «أنا ملك العدل والإنصاف والحق. ومن غير المعقول أن أعيش وحدي دون الحقيقة. دونها لا أستطيع أن أحكم مملكتي بمفردي. يجب أن نكون أنا وهي غير منفصلين، ونخدم الناس ونأمرهم في الوقت نفسه! لنذهب، دعينا نذهب إليهم، إلى مملكة البشر البعيدة!»

انطلقت الخيول السريعة في الهواء وبداخلها ملك العدل والإنصاف والملكة حقيقة.

وظلت الملكة حكاية الخيالية في غابتها تسحر الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات بقصصها. الآن لن تتدخل ابنتها الشقية في سحرها. إنها ليست قريبة. حملتها خيول زوجها الملك إلى مملكة البشر البعيدة المشرقة.

الحكاية السابعة: ثلاث دمعات للأميرة

عاش هناك ملك. كان لديه قصر فخم. في القصر ثروات ليس لها مثيل! الذهب والفضة والكريستال والبرونز والأحجار الكريمة؛ كل شيء يمكن العثور عليه بكثرة في الغرف الأنيقة والفاخرة في القصر الملكي. كان الخدم الوسيمون يشبهون الدُّمى الحسنة الملبس، يتسللون بصمت عبر الغرف المفروشة بالسجاد، ولم يرفعوا أعينهم إلى الملك، كي لا يعطلوه.

لم يكن الملك وحيدًا؛ فقد كانت له زوجة، ملكة وديعة ورقيقة، لها عينان جميلتان، وهي جميلة كالسماء عند غروب الشمس.

كان الملك يقضي كل وقته في حروب مع الأعداء. وعندما يعود إلى المنزل، تلبس الملكة الجميلة أفضل ملابسها، وتلتقي بزوجها وهي تحمل عُودًا في يديها، وتغنِّي عن شجاعته المجيدة وبسالته في المعارك مع العدو.

لكن لا الحملات الناجحة، ولا حب الملكة اللطيفة والجميلة، ولا الكنوز التي لا حصر لها، ولا عاطفة الرعايا أسعدت الملك. فثَمَّة تعبير حزين ويائس لم يترك وجهه قط. ثَمة سبب جعلَ الحزن دائمًا في قلب الملك وزوجته الشابة.

لم يكن للزوجين الملكيين أطفال. وعندما كان الملك يفكر أنه لن يكون هناك من يترك له اسمه المجيد، أو الأراضي المفتوحة، أو الثروات التي لا حصر لها، تظهر دموع لا إرادية في عينَي الملك الشجاع، وكان يحسد أشد الناس فقرًا في مملكته فقط إذا كان لديهم أطفال.

بعد مآثر وانتصارات عسكرية على الأعداء، سافر الملك إلى الأدْيِرة، وقدم صدقات سخية، وطلب من الآباء القديسين الصلاة إلى الله من أجل أن يعطيه الابن.

وفي وقت السلم، انتقل الملك مع حاشيته من العاصمة الكئيبة إلى الوادي الساحر من الورود العطرة، وفي وسطه شُيِّد بيت متواضع لرحلات صيد الملك، حيث كان يقضي كل أوقات فراغه. غالبًا ما كان الزوجان الملكيان يمشيان على طول الوادي المليء بالزهور

العطرة، وهما معجبان بمنظر الطبيعة الرائع، ويوجهان أعينهما إلى السماء الزرقاء ويطلبان من الرب في صلاة حارة أن يرزقهما طفلًا. وقد استُجيب طلبهما.

ذات مرة خلال إحدى هذه المسيرات، رأى الملك والملكة امرأة ملفوفة بالسواد. سارت نحو الزوجين الملكيين وهي لا تكاد تلامس الأرض بقدميها؛ خفيفة وهادئة.

قالت المرأة وهي تقترب من الملك والملكة: «اسمي القدر، جئت لأعلن لكما فرحة كبيرة. سمع الله صلاتكما، وسيرسل لكما ابنةً أميرة، لن تكون عزاءكما فحسب، بل ستكون أيضًا شعاعًا ساطعًا وفرحةَ المملكة بأكملها. ستكون جميلة مثل الزهرة ولطيفة مثل الملاك. لكن اعتنِيا بالأميرة حتى لا تعرف ما هو الحزن، وحتى لا تُضطر أبدًا إلى ذرف أكثر من دمعتين على مصيبة أو حزن شخص ما. لا تدعا أكثر من دمعتين تسقط من عينَي الأميرة الجميلة؛ لأنه بمجرد أن تذرف الدمعة الثالثة، تنتهي فرحتكما وعزاؤكما، ولن تعود مرة أخرى … ستفقدان الأميرة.»

بعد قول هذه الكلمات الغامضة، اختفت المرأة الغريبة وكأنها تبخرت في الهواء.

بكى الملك والملكة بسعادة. سقطت إحدى الدموع الملكية على زهرة بلون أزرق لا يُنسى، و— أوه معجزة! — نهضت من الزهرة فتاة صغيرة جميلة بعينين زرقاوين، مثل نجمتين خلَّابتين، مثل عينَي الملك. حلم الزوجان الملكيان طويلًا بهذه الأميرة الجميلة.

فتحا أذرعهما لمقابلتها. ألقت الأميرة بنفسها بين أذرعهما، واستجابت بحرارة لمداعبات والديها، كما لو كانت تعرفهما وتحبهما منذ فترة طويلة.

كانت الأميرة الجميلة تُسمى رغبة؛ لأن الأب والأم كانا يرغبان منذ فترة طويلة في ابنة، وانبثقت بهجة صاخبة تكريمًا لها في جميع أنحاء المملكة. توافد الناس على القصر الملكي بأعداد كبيرة لينظروا إلى العينين الزرقاوين للأميرة رغبة.

كبرت الأميرة وأصبحت أجمل كل يوم. تذكر الأب الملك كلمات القدر، وحرص على ألا ترى ابنته حزنًا بشريًّا، وأن تكون دائمًا مبتهجة، وراضية، وسعيدة، وأمر ببناء قصر رائع لها، كل شيء فيه وردي، مثل انعكاس فجر الصباح، ورائحته مثل تلك الأزهار التي نبتت بجانبه في الوادي. الجدران والأسقف والأبواب في القصر كلها مطلية باللون الوردي. كانت نوافذ القصر مغلقة بإحكام بستائر وردية، ومن خلال هذه الستائر رأت الأميرة كل شيء بلون وردي فاتح؛ الغابة، والوادي، والعاصمة البعيدة في الأفق. كان كل شيء ورديًّا وجميلًا، ولم يكن هناك ظل واحد على هذه الخلفية الوردية. حتى أكواخ الفلاحين الفقيرة، بفضل الستائر الوردية على النوافذ بدت لطيفة وجميلة.

اللون الوردي هو لون الفرح والسعادة. لهذا السبب حاول الملك أن يجعل الأميرة رغبة محاطة بهذا اللون فقط؛ كي ترى كل شيء بهذا الشكل؛ إذ يمكن أن تؤثر الألوان الأخرى على مزاجها الصافي، ويمكن أن تجعلها مكتئبة وحزينة. كان والداها يخافان من حزن الأميرة. عيَّنا حاشية كبيرة تتكون من آنسات صغيرات بوجوه مبتهجة وسعيدة وشقية. وأمر الملك ألا يزيلوا الستائر الوردية أبدًا.

لاحظت الأميرة أن شيئًا ما كان يُخفى عنها بعناية، وكان لديها رغبة في معرفة هذا الشيء خلف الستارة الوردية وخلف جدران القلعة.

وفي أحد الأيام، استيقظت الأميرة رغبة مبكرًا عن المعتاد. لم تسمع الآنسة الصغيرة التي كانت تنام بجانب سريرها كيف خرجت الأميرة من غرفة نومها الوردية، وركضت في صف كامل من القاعات الوردية، وركضت إلى الشرفة الوردية، ودفعت الباب الوردي المؤدي إلى الحديقة. وهنا اختفى اللون الوردي … وظهر أمام الأميرة رغبة يوم رمادي، وسماء ممطرة. الحديقة متأثرة بالطقس، وأكواخ قديمة بائسة بعيدة على حافة غابة كبيرة مظلمة. وفي الحديقة، وقفت امرأة عجوز مريضة في حالة يُرثى لها، بخصلات شعر رمادية، وكانت تنظر إلى الأميرة.

صُدمت الأميرة بشدة من هذا الجو الكئيب، وهذه المرأة العجوز، لكنها ذهبت إلى المرأة العجوز وقالت لها: «مرحبا يا جدتي! من أنت؟ ما اسمك؟»

أجابت العجوز وهي تنظر بقسوة إلى الأميرة: «اسمي حياة!»

قالت الأميرة بمرح: «ليس صحيحًا! لا يمكن أن يكون اسمك حياة. أنت عجوز وقبيحة، وقد أخبرتني والدتي الملكة أن الحياة شابة لطيفة وجميلة، كما أنا جميلة. لكن مهما كنتِ فأنتِ عجوز، عشتِ كثيرًا ولا بد أنك تعرفين كل شيء. أخبريني، لماذا أصبح الجو فجأة رماديًّا وغير ودي ومثيرًا للاشمئزاز في كل مكان؟»

قالت الجدة حياة: «أيتها الأميرة! كان كل شيء دائمًا رماديًّا وقبيحًا وحزينًا. أنتِ فقط لا تستطيعين رؤيته، فبسبب الستائر الوردية المعلقة على نوافذك، بدا لك كل شيء زاهيًا وورديًّا وجميلًا. أنت لا تعرفين الحياة، ولا تعرفين أحزان الإنسان ومعاناته، وتكبرين كأميرة مرحة وخالية من الهموم لأنكِ لا ترَين حزنًا مِن حولك.»

صاحت الأميرة: «لكنني أريد أن أرى الحزن، أريد أن أرى البؤساء، وأن أجعلهم سعداء، أريد أن أساعد كل من يحتاج إلى المساعدة!»

قالت العجوز حياة: «اطلبي من والديك إزالة الستائر الوردية عن النوافذ!»

قالت الأميرة: «نعم، سوف أتوسل إليهما.»

وركضت إلى القلعة للبحث عن والديها.

قابلتها والدتها عند عتبة القلعة. كانت الملكة خائفة بشكل رهيب من اختفاء ابنتها. ارتعدت الخادمات وسيدات البلاط خوفًا على مصيرهن. كن يعلمن أنهن سيعاقبن بشدة بسبب غفلتهن عن الأميرة الصغيرة.

وعندما أعربت الأميرة عن طلبها لأمها، ارتعدت الأخيرة من الرعب واعترفت بالدموع لابنتها أنها أخفت بعناية عن الأميرة السبب الذي سيجعلها تموت.

بكت الملكة وقالت: «يا عزيزتي، بمجرد أن تنزل ثلاث دمعات من عينيك، لن تستطيعي رؤية معاناة الإنسان وأحزانه؛ ستبكين، وبعد ذلك نفقدك، أيتها الجميلة الشابة المحبوبة.»

فكرت رغبة للحظة. وفجأة هزت رأسها الأشقر وابتسمت لأمها برقة.

قالت بصوت عذب وحنون: «اجعليهم يزيلون الستائر الوردية من النوافذ، ومُريهم أن يتركوني أخرج من القلعة للناس دون عائق حتى أتمكن من رؤية حزنهم ودموعهم وأساعدهم. لا تخافي من أن أموت يا أمي. لقد رأيت الآن الحياة، وعرفت كم هي عجوز وغاضبة وكئيبة وقاسية، وأريد — بقدر ما أستطيع — أن أجعلها تبتسم بودٍّ للأشخاص التعساء. وإذا لم تسمحي لي بالخروج يا أمي فسأذبل هنا، في هذه القلعة الوردية، وأموت كدرًا.»

استمعت الملكة إلى خطاب ابنتها وهمست بهدوء: «كما تريدين يا ابنتي. الآن بعد أن مررتِ بالفعل من الباب الوردي، من غير المجدي أن نحاول أن نخفي عنك ما رأيتِه بالفعل.»

وهكذا نالت الأميرة رغبة حريتها.

ازدهرت الأميرة وعادت للحياة وأصبحت أجمل من أي وقت مضى. والآن لم تعد القلعة الوردية والكنوز الملكية والحاشية المبهجة من آنسات البلاط الصغيرات وخادماتهن وألعابهن المبهجة تسلي الأميرة رغبة، التي ارتدت ثوبًا بسيطًا لامرأة فلاحة عادية.

تجعَّد شعرها بفعل الرياح، وجرت في وادي الزهور، وتحدثت إلى الطيور والزهور، وفهمت صوت الأعشاب والأوراق، وابتلعت ندى الليل من الزهرات الزرقاء. كانت تدخل أكواخ الفلاحين الفقيرة، وحيثما تطأ قدمها الصغيرة يَسُدِ الفرح والرضا والسعادة في كل مكان. الأميرة تعطي المال لجميع الفقراء، وتدفئهم بمظهرها اللطيف وأخلاقها الحميدة. تكفي نظرة واحدة متألقة من رغبة كي ينسى الناس أمراضهم ومعاناتهم. لم يكن هناك شخص فقير في المملكة لا يبارك الأميرة الصغيرة. اتَّسعت شهرتها ولطفها في جميع أنحاء

البلاد، وسعى جميع التُّعساء لرؤية الأميرة رغبة من أجل الحصول على الراحة والمساعدة منها.

ظل الملك يقاتل الدول المجاورة من أجل توسيع ممتلكاته وترك ميراثًا كبيرًا لابنته، وكانت الملكة الأم تحرس رغبة بعناية من كل ما يمكن أن يسبب لها المعاناة. كانت تراقبها بيقظة، خشية أن ترى ولو بوادر دمعة في عينيها الزرقاوين المتوهجتين.

قالت الأميرة ذات مرة وهي عائدة من مسيرتها المعتادة: «يا أمي، سمعت الغناء في البستان المجاور. شخص ما يغني بصوت جميل. من هو يا أمي؟»

وبمجرد أن قالت الأميرة هذا، أُرسِل مائة رسول عبر البستان بأوامر لتسليم المُغنِّي الغامض إلى القصر.

وتم تسليم المغنِّي. اتضح أنه عندليب؛ طائر صغير رمادي مظهره غير واضح، لكنه يمتلك صوتًا رائعًا بشكل لا يوصف. وُضِع في قفص ذهبي، حيث كان من المفترض أن يُغنِّي العندليب الأغاني. لكن العندليب ظل صامتًا. لم يستطع الغناء في الأسر. فقط في المساء بعد غروب الشمس، عندما طار طائر آخر صغير واقترب من قفصه، بدأ كلاهما يُغنِّي أغنية رائعة.

في هذه الأغنية، سُمع شوق مميت؛ حزن على الغابة الخضراء والحرية المفقودة وشكوى من البشر ومن قسوتهم. كان هذا نداء يحتضر بالدموع للإفراج عن السجين ذي الريش. بكى كلا الطائرين بمرارة وحزن، وأطلقا أغنية حزينة. وفهمت الأميرة، التي كانت دائمًا بالقرب من القفص، شكوى الطائرين. فهمت وركضت إلى والدتها متوسلة إياها أن تطلق العندليب إلى الحرية. وأُطلق العندليب، لكنَّ دمعة تدحرجت من العين الزرقاء للأميرة رغبة، نقية ولامعة، مثل الماس الجبلي.

وفي نفس المساء ظهرت المرأة الغامضة للزوجين الملكيين وقالت بحزن وبصرامة: «تذكرا لقد ذرفت ابنتكما أول دمعة.»

ثم اختفت.

زاد قلق الزوجين الملكيين على ابنتهما. وأغرقا الأميرة الرقيقة بالهدايا. وسرعان ما نسيت حزن الطائر الصغير وبدأت تجري عبر الوادي المزهر والغابات الخضراء، وبدأت مرة أخرى في الركض إلى أكواخ الفلاحين، وإيقاف دموع الناس وتلبية طلباتهم.

وذات مرة، أثناء سيرها على طول الغابة، صُدمت الأميرة بأصوات أسلحة لم تكن مألوفة لها. واندفعت نحوها مباشرة مجموعةٌ كبيرة من الفرسان والسيدات على ظهور

الخيل. كانوا يطاردون شخصًا ما. وفي تلك اللحظة بالذات، من تحت قدمَي الأميرة نفسها، من بين العشب الطويل، قفز أرنب صغير مذعور من المطاردة.

توقف على بعد بضع خطوات من الأميرة، وضغط أذنيه الطويلتين المرتعشتين على ظهره، ونظر حوله بعينيه المستديرتين الحزينتين، وبدا كأنه ينتظر شيئًا ما.

«بانج بانج!» انطلقت رصاصة وارتمى الأرنب الأبيض الصغير ملطخًا بالدماء تحت قدمَي الأميرة.

أمسكت الأميرة رغبة بالأرنب الذي كان لا يزال يرتجف بين ذراعيها، وضمته إلى صدرها وصرخت، ثم اندفعت نحو الصيادين ومرافقيهم وهي تصرخ: «أيها الأشرار! ما الضرر الذي ألحقه بكم هذا الحيوان المسكين البريء؟ لماذا قتلتموه؟»

وبعد هذه الكلمات، نزلت دمعة ماسية ثانية من عينَي رغبة الزرقاوين وعلقت على رموشها الداكنة.

وفي المساء نفسه، ظهرت المرأة الغامضة مرة أخرى في القصر، وأبلغت الملك والملكة بالدمعة الثانية من ابنتهما.

مر وقت طويل، وكبرت الأميرة رغبة وتحولت إلى عروس شابة جميلة، وكانت فخر وجمال المملكة بأكملها. واصل والدها الملك حروبه ووسع نفوذ بلاده من أجل مهر ابنته. واستمرت إحدى هذه الحروب لفترة طويلة للغاية. تحقق النصر بصعوبة كبيرة، لكنه كان أفضل انتصارات الملك. قاد العديد من الأسرى، وجلب غنيمة كبيرة من العدو.

وُضِع السجناء بعيدًا عن القصر؛ حتى لا يصل رنين الأغلال والسلاسل بطريقة ما إلى آذان الأميرة.

وفي أحد الأيام، أثناء عودة والدها من حملة جديدة، خرجت الأميرة رغبة، وهي بالفعل فتاة بالغة تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، لمقابلته، محاطة بحشد من سيدات البلاط.

كن جميعًا يرتدين أردية احتفالية بيضاء، وأكاليل النصر تزين رءوسهن. كان من المقرر إلقاء الأكاليل عند قدمَي الملك المنتصر. وفي يد رغبة كان العود ذو الأوتار الذهبية لأمها، الذي كانت الفتاة تستعد لتحية والدها به.

وفجأة ظهرت امرأة عند قدمَي الأميرة، الرب فقط يعلم من أين جاءت، مهتاجة ومرتجفة ونحيفة كهيكل عظمي.

وبصوت فظيع وحشي صرخت: «اسمعيني أيتها الأميرة! أيتها الأميرة، أنتِ تستمتعين بالحياة. تأكلين في أطباق ذهبية وترتدين المخمل والديباج، ومئات من الخدم اليقظين يلتقطون كل نظرة وكل كلمة. حولك ثروات لا حصر لها ورفاهية لا مثيل لها. هل تعلمين

كيف حصلتِ على كل هذا؟ مات الآلاف من الناس في معركة من أجل الحصول على كل هذه الثروات. عمل آخرون بجد لتكريم والدك المنتصر، الذي يدمر، بلا رحمة، الأراضي الأجنبية، ويقتل الناس من أجل جمع أكبر قدر ممكن من الثروة لك أيتها الأميرة. ولكن هذا ليس كل شيء. أنت تُغنين الأغاني وتجرين سعيدة ومبتهجة عبر الوادي، ويعاني الآلاف من الأسرى في السجون والأبراج المحصنة المزدحمة. بينهم ابني. إنه شجاع وقوي مثل نسر الجبل، ويحب الحرية مثلك. لكن والدك أمر بتقييده بالسلاسل، فقط لأنه دافع عن نفسه ضد محاربيه كقائد شجاع وباسل. لقد جئت إلى هنا من بلد أجنبي من مملكة أجنبية، جئت إلى هنا لأطلب منك إنقاذ ابني. أنقذيه أيتها الأميرة، وسأباركك كل حياتي. أنت وحدك تستطيعين فعل هذا.»

وبكت المرأة وهي تعانق ركبتَي الأميرة رغبة. بدا هذا فظيعًا ومروعًا وثقيلًا مثل الموت.

انحنت الأميرة وعانقت المرأة البائسة، وأرادت أن تقول شيئًا، وفجأة نزلت دمعة ثالثة من عينيها وسقطت على رأس أم السجين التي تبكي.

ارتجفت الملكة، وعلا شحوبٌ قاتل وجهها الجميل. حملتها الخادمات.

وفي نفس اللحظة سُمعت صيحات النصر، وقعقعة السلاح، وظهر الملك نفسه على رأس الجيش. وعندما رأى الارتباك في حشد الفتيات، ترك حصانه وركض نحو الحشد.

الأميرة بين يدَي الخادمات. رفعت عينيها الواسعتين إلى الملك، وعبَّرت عن حزنها لمن قُتلوا ومن عانوا في السجون والأبراج المحصنة. ثم غابت النظرة المشعَّة، تلاشت، تلاشت ... أغمضت العينين الزرقاوين، وتنهدت بهدوء، وحلقت الروح الجميلة والمشرقة للأميرة.

وفي تلك اللحظة بالذات، أتت امرأة غامضة ملفوفة بالسواد إلى قصر الملكة وقالت بشكل كئيب: «ذرفت الأميرة دمعتها الثالثة. ما كان يجب أن يحدث قد حدث. ليس لديكما ابنة بعد الآن ...»

ماتت الأميرة، ولكن ذكراها لم تمُت. أوقف الملك الحروب والغارات، وسرح القوات، وفتح السجون والأبراج المحصنة، وأطلق سراح الأسرى المنهَكين. فعل كل هذا تخليدًا لذكرى ابنته رغبة. وفي ذكراها أمَر الملك بعمل آخر. أمر بإطعام كل الفقراء والجوعى في البلاد. وصار الأيتام والمشردون يجدون مأوًى في القصر الملكي. وعمَّت الرحمة والسلام أنحاء البلاد.

الحكاية الثامنة: دول-دول ملك بلا قلب

على حافة الغابة، في ضوء القمر، تجمَّع ثلاث ساحرات لطيفات بالقرب من جرَّة حجرية صغيرة. اختبأ القمر خلف سحابة، ثم عاد يطفو مرة أخرى. أصبحت الوجوه الشاحبة للساحرات الطيبات مرئية، وشعرهن يلمع تحت الضوء الفضي.

أخرجت الساحرة الأولى حفنة كاملة من بتلات الورد من حضنها، وألقتها في الجرة، وقالت: «الابن الملكي سيولد غدًا. ليكُن جميلًا مثل الورود، وليعجب به وبجماله الجميع.»

ثم ابتعدت بسرعة عن الجرة وبدأت تلف في الهواء. أضاءت اليراعات العشب، وأضاءت رقصتها، وغنى العندليب من الغابة أغنية رائعة لا يمكن سماع مثلها حتى في القصر الملكي نفسه.

ثم جاءت الساحرة الثانية إلى الجرة. كانت تحمل في يدها خيطًا فضيًّا طويلًا.

قالت وهي تُلقي بالشعرة في الجرة: «هذه شعرة من رأس الساحر جاي. أخذت هذا الشعر منه أثناء نومه لأعطيها للطفل الملكي. بفضل هذه الشعرة، سيكون الطفل حكيمًا، مثل جاي نفسه. على كل حال، لا يوجد حكيم مثل جاي في العالم كله. وكل شعرة من شعره هي كنز دفين من الحكمة.»

قالت الساحرة الثالثة: «أسرعي يا أختاه، وإلا فإن الرجل سيستيقظ ويأخذ الشعرة، وربما أبعدنا بعيدًا، ولا يكون لديَّ الوقت لوضع قلب الحمامة في الجرة. سوف نجعل الأمير المستقبلي لطيفًا ووديعًا.»

وبمجرد أن تلفَّظت الساحرة الثالثة بالكلمة الأخيرة، تمايلت الغابة وهمهمت، وظهر الساحر جاي؛ نصف رجل ونصف وحش بعيون نارية وشعر أشعث، يمتطي خنزيرًا بريًّا.

صاح بصوت رهيب انطلقت منه قعقعة عبر الغابة: «من سرق شعرة رأسي؟»

لكن الشعر إلى جانب بتلات الورود كانا بالفعل في الجرة، وكان الدخان يتصاعد من هناك في تيار أزرق، بالكاد يمكن ملاحظته.

وعند رؤية هذا، أمسك جاي برأسه وأطلق هديرًا جديدًا أكثر فظاعة من الأول. أدرك أنه لا يستطيع استخراج الشعرة من الجرة بأي قوة.

هُرعت الساحرات الخائفات إلى الجانب، وقامت الساحرة التي تحمل قلب الحمامة المخصصة للطفل الملكي في يدها بإلقائه على الأرض.

وفي اللحظة ذاتها، أمسك جاي بالقلب وعاد بخنزيره إلى الغابة، وأطلق صيحات انتصار عالية.

ذهب الخوف عن الساحرات الطيبات الثلاثة، ووجدن أنفسهن مرة أخرى أمام الجرة.

الآن يبكون. بكوا لأن الطفل المستقبلي سيكون ذا جمال وذكاء، لكن لن يكون له قلب وديع.

سيولد الأمير الصغير بلا قلب. وسقطت دموع الساحرات في الجرة ...

وسرعان ما انطفأ الضوء الأزرق، وبدأت أكبر الساحرات تمسك عصاها السحرية، وتحرك ما في الجرة، وهي تغني بهدوء عبر دموعها.

رددت شقيقتاها معها أغنيتها.

وعندما انتهت الأغنية، نظر الثلاثة إلى الجرة.

في الجزء السفلي منها، كان يرقد صبي صغير، جميل مثل الملاك. حملنه من الجرة، وأخذنه إلى القصر الملكي ووضعنه في مهد فاخر أُعد منذ فترة طويلة للأمير الصغير، الذي كانت ولادته متوقعة من يوم لآخر.

عاد الملك من الحرب منتصرًا. كان النهار مشرقًا وبديعًا، وكانت شمس الربيع الحارة تنعكس على دروع ورماح وأسلحة المحاربين الذين أحاطوا بالملك.

خلف الجيش الملكي كان هناك أسرى مقيدو الأرجل والأيدي.

عيونهم باهتة، وهزيلون بشكل رهيب، تغطيهم الدماء. لقد لاقوا مصيرهم بشجاعة كبيرة.

مشى جندي بجانب الملك. جندي عادي جدًّا؛ أبسط جندي. واسمه أبسط. كان يُدعى إيفان. كان يرتدي معطفًا مثقوبًا بالرصاص، ولديه ندبة ضخمة من سلاح العدو.

نظر كل من في طريق الملك بدهشة إلى الجندي الرمادي وتسألوا: لماذا يسير بجوار الملك. جندي بسيط رمادي، وينال مثل هذا الشرف؟! ثم سُمعت أصوات من صفوف

الجيش: «هذا ليس جنديًّا عاديًّا. هذا بطل. أفسح للملك الطريق، واقترب من معسكر العدو، وأوقف الجيش عندما هرب، وقام بحماية الملك نفسه بصدره عندما توجه العدو نحوه. لا يمكن للملك أن ينسى هذا، ويعتبر الجندي إيفان أفضل أصدقائه وخادمه.»

وعند سماع ذلك، بدأ الناس بتحية الجندي بحماسة مثل الملك تمامًا.

كانت الصرخات تعلو وتعلو. أمطروا المنتصرين بالزهور. نثرت أجمل فتيات المدينة بملابس بيضاء ناصعة الورود على طريق الملك المنتصر.

وهكذا وصل المنتصرون إلى القصر الملكي.

رفع الملك رأسه إلى النوافذ على أمل رؤية زوجته الحبيبة، الملكة، في إحداها.

لكن بدلًا من الوجه الجميل للملكة، ظهر وجه عجوز لراهب أشيب الشعر من النافذة وقال: «استعد أيها الملك لسماع خبرين؛ أحدهما حزين، والآخر مبهج. رزقك الله ولدًا، وماتت زوجتك الملكة فجرًا.»

صرخ الملك بقوة وأمسك بقلبه و... مات.

لم يرَ زوجته الميتة أو ابنه المولود.

وعلا صوت البكاء والأنين بين الشعب والجيش؛ فقد كان الملك طيبًا وحكيمًا وشجاعًا، وأحبته البلاد كلها.

بعد ذلك، عندما مرت أولى نوبات الحزن، تجمَّع الناس في الساحة بالقرب من القصر، وبدءوا في اتخاذ قرار بشأن ما يجب فعله.

تجادلوا وتصايحوا لفترة طويلة؛ طيلة ثلاثة أيام كاملة وثلاث ليالٍ. وعندما ذهب صوتهم ولم يعودوا قادرين على الكلام قرروا: مات الملك والملكة، والأمير لا يزال طفلًا رضيعًا. يجب اختيار ملك آخر حتى يكبر الأمير الوليد دول-دول ويكون قادرًا على حكم المملكة بنفسه. وبما أن الجندي إيفان أنقذ البلاد والملك والجيش من الموت، ليكُن هو الملك.

لقد اتخذ الشعب القرار.

ذهبوا للبحث عن إيفان ليعلنوا البشارة له، ووجدوه عند مهد الأمير.

قالوا: «لقد اخترناك ملكًا!»

قال: «لا، لن أكون ملكًا. سأبقى جنديًّا لأبذل كل حياتي في خدمة الأمير دول-دول. كما خدمت والده، سأخدمه. سأُعلِّم الأمير بقدر ما أستطيع. سأعلمه أن يكون شجاعًا وذكيًّا ولطيفًا كما كان الملك الراحل.»

قال الرسل لإيفان: «في هذه الحالة، اختر لنفسك لقبًا يجلب لك الثروة ويُلزم الجميع بتكريمك.»

هز رأسه مرة أخرى قائلًا: «لست بحاجة إلى الثروة أو التكريم. لماذا يحتاج الجندي إلى الثروة والتكريم؟ بالنسبة لي، الشرف هو أن أخدم الطفل الملكي بإخلاص! ارجعوا يا إخواني وقولوا للناس ليختاروا لأنفسهم ملكًا آخر أفضل وأذكى، واتركوا لي مكافأة واحدة: الإذن بعدم الانفصال عن الأمير أبدًا.»

غادر الرسل وهم يهزون أكتافهم، وانحنى الجندي إيفان مرة أخرى فوق مهد الطفل.

ستة عشر عامًا مرت. كبر الأمير وأصبح ملكًا. يا له من ملك! لم يكن هناك شاب أجمل منه في كل البلاد.

هل سبق لك أن رأيت السماء الزرقاء الصافية؟ حسنًا، هكذا بالضبط كانت عينا الملك. زرقاوين صافيتين لامعتين.

هل سبق لك أن رأيت اللون القرمزي في منتصف ستارة حديقة (الستارة عبارة عن سلسلة من التلال مبطنة بالعشب والزهور والنباتات الأخرى)؟ حسنًا، يبدو أن الشفتين الملكيتين الأرجوانيتين بنفس لون بتلات الخشخاش.

وكان بياض وجهه مثل الزنبق، وكانت خدوده الحمراء مثل انعكاس فجر الصباح. شعرُ الملك الشاب ذهبي حتى إنه عندما خلع قبعته بدا أن غطاءً من حرير يحيط رأسه بأشعة الشمس.

لكن لم يرَ أحدٌ الملك الشاب. حتى سن السادسة عشرة كان مخفيًّا عن أعين الناس (هذا هو قانون ذلك البلد). كانوا خائفين من أن الساحر الرهيب جاي قد يفسد بطريقة ما جمال دول-دول. وحده الجندي إيفان ظل بالقرب من الأمير وخدمه بلا كلل ليلًا ونهارًا.

لم يكن على المعلمين الذين تمت دعوتهم لتعليم دول-دول الكثير ليفعلوه في أمر الحكمة؛ فالملك كان بالفعل حكيمًا جدًّا بفضل شعرة جاي، لدرجة أنهم لم يجدوا شيئًا ليعلموه إياه.

وعندما أتم الأمير من العمر ١٦ عامًا، وضع الجندي إيفان تاجًا ذهبيًّا على شعره المجعد وقاده إلى الناس. كان يوم شتاء رائعًا. تقلبت الشمس في السماء، وأضاءت الضفائر الذهبية للملك الشاب مثل الشمس.

تزاحم الناس وأشاروا إلى دول-دول وهمسوا بفرح: «من الآن لدينا شمسان، إحداهما في السماء والأخرى في أروقة القصر.»

بدا أن الثلج الأبيض الذي غطى الأرض تمتم بحسد عند رؤية وجه دول-دول الأبيض الساحر.

والورود القرمزية التي ألقتها أجمل الفتيات عند أقدام الملك الشاب بكت بحسَد على مقربة من الشفاه القرمزية الرقيقة للشباب الجميل.

لكن لم يكن هناك حد لفرحة الناس عندما حياهم دول-دول. لن يستطيع أي ملك في العالم أن يخطب مثله! تنعكس في خطابه كل الأفكار الدقيقة، كل حكمة الملك الشاب.

صاح الشعب: «يعيش ملكنا الوسيم الحكيم! إذا كان لطيفًا وحنونًا كما هو ذكي ووسيم، فإن شعبنا سيصبح أسعد شعب في العالم!»

وبمجرد توقف الصيحات الحماسية، حلت محلها صيحاتُ اليأس والألم. أنزلوا الجسر عبر النهر الذي كان يتدفق تحت شُرفة القصر الملكي. الناس الذين أرادوا إلقاء نظرة فاحصة على الملك الوسيم اندفعوا إلى هذا الجسر وسُحقوا ودفع بعضهم البعض. أراد الجميع النظر عن كثب إلى وجه الملك الوسيم.

وفجأة سُمع صوت طقطقة مروعة. لم يستطع الجسر تحمل ضغط الحشد وانهار في الماء. وإلى جانب الجسر سقط آلاف الأشخاص المحتشدين فوقه.

صاح الناس: «أيها الملك! أيها الملك! أنقذنا! أنقذنا أيها الملك الحكيم!»

لكن الملك وقف بلا حراك على شرفة قصره و... ابتسم.

لم تتحرك عينا الملك الزرقاوان، لم تعبر عن الرعب ولا الحزن. كانتا مبتهجتين طفوليتين شفافتين. فقط ابتسمت عيناه.

استولى يأس جديد على الحشد.

سُمعت صيحات تعجب يائسة من الحشد الذين تمكنوا من الفرار: «الملك بلا قلب! ملكنا ملك قاسٍ بلا قلب!»

وظلت عينا الملك تضحكان وكأن شيئًا لم يحدث. ابتسمت عيناه وهو ينظر إلى الجثث الميتة التي غمرت النهر، وينظر إلى رعب الناس. لم يفهم الملك حتى ما كان يحدث من حوله، وبنفس الضحكة دخل إلى القصر.

ذهب الجندي إيفان خلف سيده. قال بحزن: «أيها الملك! بقي العديد من الأيتام التعساء خلف أسوار القصر مِن أبناء مَن غرقوا في النهر. هل ترغب في مساعدتهم؟ قل للجنود أن يوزعوا الذهب فيحمدك الناس على لطفك.»

قال الملك: «افعل ما تريد، أنت الأذكى بعدي ولن تنصح بشيء سيئ. أعطهم الذهب، لكن من الأفضل أن تبقى العملات الذهبية في قصري. سأطلب منهم تزيين جدران مسكني، وأريد أن أرى كيف ستلعب أشعة الشمس في هذا البحر الذهبي.»

وضحك الملك بمرح وبصوت مرتفع.

لم يكن لديه قلب، ودون قلب لم يستطع أن يفهم الحزن الذي عاشه الأيتام.

وبعد أن علم الشعب أن ملكهم الوسيم لا قلب له، أصيبوا بالرعب والارتباك. ولكن من بين الحاشية المحيطة بالملك، كان هناك من سُر بهذا، ورأوا أن الملك يحب الأعمال الانتقامية القاسية، فحاولوا إرضاءه، ومنحه جميع أنواع وسائل الترفيه القاسية، واعتقدوا أنه سيحب ذلك. أحب الملك تعذيب الحيوانات ولم يشفق على الناس. في يوم من الأيام، عُلِّق ما يصل إلى ألف قطة أمام قصره. وفي مناسبة أخرى، انتُزع الريش من الطيور المغردة في القصر، وسُمح لها بالطيران بعد نتفها.

وأخيرًا، بعد أحد الانتصارات على الأعداء الخارجيين، أُحرِق جميع الأسرى في حريق كبير في وسط الميدان.

وقف الملك على الشرفة وضحك. حوله كان هناك حشد كبير من رجال الحاشية. قالوا للملك: «أنت حكيم كالأفعى، وجميل كالشمس! لا يمكنك أن تطلب المزيد من القدر. لقد أعطاك كل الهدايا. أنت أجمل وأحكم وأطيب ملك في العالم.»

هذا ما قالوه.

ورفع الملك دول-دول رأسه الجميل عاليًا وسأل بجلال وفخر: «هل صحيح أنني أحكم وأجمل وأطيب الملوك؟»

قال رجال الحاشية: «هذا صحيح! تلك هي الحقيقة التي لا يمكن إنكارها! الحقيقة، الحقيقة! انت أجمل ملك.»

وفجأة ظهر صوت أعلى من صوت الجميع: «لا، هذا ليس صحيحًا! أنتم تكذبون على الملك! أنت الأحكم والأجمل، لكنك أيضًا أقسى ملوك العالم.»

ضرب الملك الأرض بقدمه وصرخ: «من تجرأ على قول تلك الكلمات؟»

وقف الجندي إيفان أمام الملك وقال: «أنا فعلت.»

همست الحاشية: «الجندي إيفان! كيف سمح لنفسه بإهانة الملك؟»

سمع إيفان كل هذه التعجُّب وانتظر بهدوءٍ مصيره. نظرت عيناه الرماديتان اللطيفتان إلى وجه الملك بلا خوف.

همست الحاشية مرة أخرى: «إنه يستحق عقوبة الإعدام! أهانك أيها الملك! أعدمه!»

نظر دول-دول إلى رجال الحاشية من حوله. وجوه الجميع تعبر عن الكراهية والعداء. أراد كلٌّ منهم إعدام إيفان ليحل محله لدى الملك.

وكان الملك على استعداد لتلبية الطلب العام.

كان على وشك النطق بحكم الإعدام على مُعلمه وخادمه، عندما تذكر فجأة أنه لن يتمكن أحد من تحضير كوب من هذا المشروب اللذيذ ليلًا كما يعرف إيفان كيف يعده، ولن يتمكن أحد من تغطيته جيدًا ببطانية من المخمل الدافئ، ولن يتمكن أحد من تمشيط شعره المجعد الذهبي كما يفعل إيفان.

ليس الحب أو الشفقة هي التي أثارت روح دول-دول لمجرد التفكير في أنه قد يفقد إيفان، ولكن ببساطة، الخوف من فقدان خادم لطيف ومخلص وضروري.

التفت الملك إلى إيفان وقال بصرامة: «في المرة القادمة كن أكثر حذرًا في حديثك مع ملكك، وقاحتك تستحق الاعدام، لكني لا أريد أن أعدم جنديًّا لمثل هذا.»

إنني أسامحك هذه المرة.

مُهدت الطرق للحروب، وسرعان ما أدرك جميع الملوك المجاورين قوة دول-دول التي لا تُقهَر، لأن دول-دول كان حكيمًا وعرف كيف يشن الحروب وينتصر فيها.

فقط الأمير الأسود من الشعب شبه المتوحش استمر في القتال بشكل يائس ضد فِرَق الملك. وأخيرًا، بعد معارك عديدة، هُزم الأمير الأسود أجو بعد مقاومة طويلة، وأُسِر وقُيد بالسلاسل ونُقِل إلى العاصمة وسُجِن. قرر دول-دول الغاضب قتله. وأمر الناس بالتجمع عند أول شعاع للشمس في ساحة المدينة.

قال الملك ضاحكًا لحاشيته القريبة: «سوف نحمِّم أجو الأسود حتى لا يكون أسود وقذرًا بعد الآن.»

وأمر على الفور بوضع مِرجَل كبير من الماء الساخن في الساحة، حيث كان من المفترض أن يرمي الأمير الأسير في الماء.

ارتعد الجندي إيفان من الرعب عند سماعه قرار ملكه. ألقى بنفسه عند قدمَي دول-دول وبدأ يتوسل إليه: «أجو الأسود مثلنا تمامًا أيها الملك، لماذا تريد تعذيبه؟ لقد دافع عن نفسه كقائد شجاع. لا تقتله أيها الملك. إنه يستحق الاحترام.»

صاح دول-دول غاضبًا: «كيف تجرؤ على تحدي رغبتي!»

رد إيفان بهدوء: «سأخبرك دائمًا أيها الملك عندما لا تكون عادلًا.»

قال الملك بضحكة لا مبالية: «في هذه الحالة، لن تُضطر إلى التحدث كثيرًا، لأنه غدًا عند شروق الشمس، ستُغلى مع أجو الأسود في مِرجل مجاور.»

وبعد أن قال هذا، أدار الملك ظهره بهدوء لإيفان وتحدث إلى كبار رجال بلاطه، الذين حاولوا بوقاحةٍ الثناء على القرار القاسي للملك.

كانوا سعداء للغاية لأن الجندي إيفان لن يقف بين الملك وبينهم بعد الآن، ولن يمنعهم من التأثير على الملك.

بعد أن سمع إيفان الحكم، ظل هادئًا تمامًا. لم يكن خائفًا من الموت، لكنه كان آسفًا بلا حدود على الرعايا التعساء للملك القاسي الذي لا قلب له.

قال: «الملك المسكين، إنه لا يعرف مقدار قسوته؛ لأنه لا يملك قلبًا. يجب أن يحصل على قلب بأي وسيلة! وأنا الجندي العجوز إيفان سوف آتي به. بقيت لي ليلة كاملة، وفي هذه الليلة يجب أن أجعل ملكي القاسي لطيفًا ووديعًا.»

لكن كيف يغادر إيفان بينما وضعوا الأصفاد في يديه وقدميه، وقيَّدوه بالسلاسل! قام بذلك أعداؤه من الشخصيات المرموقة، الذين ابتهجوا بأن الملك سيحرر نفسه أخيرًا من إيفان ويقربهم منه.

ومع ذلك غامر إيفان بأن يطلب طلبًا من الملك: «جلالة الملك، حررني اليوم، وغدًا سأعود عند شروق الشمس. أريد أن أذهب إلى الغابة لأستمتع بالطبيعة للمرة الأخيرة قبل إعدامي.»

همست الحاشية للملك دول-دول: «لا تدعه أيها الملك، لن يعود. سوف يهرب من الإعدام.»

قال دول-دول: «لا! لن يفعل. أعرف إيفان، لن يخدعني. سوف يعطي كلمةَ شرف كجندي ويعود.»

أجاب إيفان: «أُعطي كلمة شرف كجندي أيها الملك.»

وعلى الفور قام الخدم، بأمر من الملك، بإزالة السلاسل عنه. شعر بالحرية مرة أخرى، طليقًا لليلة واحدة ليموت في صباح اليوم التالي!

كانت الغابة السوداء تعجُّ بالزوابع، وصوت الصفير من العاصفة الثلجية والثلوج المتساقطة. وعندما اقترب الجندي إيفان من حافة الغابة صرخ بصوت عالٍ: «أيها الكائن القوي، أيها الساحر جاي، اظهر أمامي!»

انحنت أشجار الصنوبر القديمة، وجاء الساحر الرهيب إلى حافة الغابة على خنزير بري.

صرخ جاي بصوت جبَّار: «ماذا تريد أيها الجندي؟ لماذا تزعجني في هذا الوقت؟»

قال الجندي إيفان منحنيًا: «أنت ساحر جبار وقوي، ويمكنك فعل أي شيء. يمكنك أن تعطي ملكي قلبًا! أعطِ دول-دول قلبًا يا جاي وخذ مني ما تريد.»

انفجر الساحر ضاحكًا تلك الضحكة الرهيبة، التي هزت أنحاء الغابة، واهتزت لها الأرض، وارتعدت الحيوانات من الخوف في مخابئها.

قال الساحر: «جندي غبي! غبي! ماذا آخذ منك وأنا أقوى ساحر في العالم ولديَّ كل شيء؟ لديَّ القلب الذي قصدته لدول-دول. لكنني لن أتخلى عنه بهذه السهولة. ومع ذلك سأعطيك هذا القلب إذا سمحت لي بنزع قلبك البشري من صدرك. هل توافق؟»

قال إيفان بقلق: «لكن هل سأفقد حياتي مع قلبي؟»

ضحك الساحر مرة أخرى: «نعم بالطبع! ماذا تظن. هل تخاف الموت؟»

قال إيفان بهدوء: «لا، ليس هذا هو الأمر. على أي حال يجب أن أموت عند الفجر. ليس الموت هو ما أخافه، بل العار. أعطيت كلمتي للملك بأن أكون في مكان الإعدام في الصباح الباكر، وإذا قتلتني، فلن أتمكن من الوفاء بكلمة الجندي. وهذا عار كبير للجندي والرجل.»

بين ضحكاته، وبينما يستعد للرحيل فوق خنزيره قال: «حسنًا، إذا كان هذا ما تقصده، فسيبقى ملكك بلا قلب.»

ولكن بعد ذلك حدث شيء غير متوقع.

بكى الجندي إيفان بدموع مريرة. الجندي إيفان الذي رأى في العديد من الحملات كيف يتدفق الدم مثل النهر، الجندي إيفان، الذي قتل أعداء الوطن، يذرف الآن دموعًا مريرة لا تطاق، مثل طفل صغير. أراد حقًّا للملك دول-دول أن يكون لطيفًا ووديعًا، ليجعل البلاد سعيدة، وفي الوقت نفسه لا ينزعج من كلامه الصادق.

أصبح جاي في حيرة من أمره عندما رأى دموع الرجل.

قال: «ما هذا؟ لأول مرة أرى الماء يتدفق من عينَي إنسان! أحب هذه الدموع! أحببتها كثيرًا لدرجة أنني مستعد لأخذ هذه العيون التي يمكن أن تتدفق بالدمع، وفي المقابل أعطيك قلب الحمامة، والذي يمكنك أن تقدمه للملك. أعطني عينيك. وهذا قلب حمامة مقابلهما.»

بعد أن قال هذا، أعطى جاي إيفان قلب حمامة صغيرًا. أمسكه الجندي بكلتا يديه وضغطه إلى صدره. وفي اللحظة نفسها، أخرج جاي سكينًا ضخمة من حضنه واقتلع بها عينَي إيفان الباكيتين.

أصبح إيفان أعمى. وبدلًا من البكاء سال الدم على وجهه، لكنه لم يئن، ولم يشتكِ. وبصبر مذهل تحمَّل الجندي الشجاع ألمًا رهيبًا.

وعلى عجل أوقف الدم على وجهه بالثلج وانطلق في طريق عودته إلى العاصمة. في هذا الوقت لم يكن لديه ما يفعله في الغابة، وكان عليه أن يسرع في طريقه، لأن الأعمى يستغرق ثلاثة أضعاف الوقت في الطريق مقارنة بالمبصر.

علق جاي عينَي إيفان الباكيتين على صدره، و... أوه! رائع! الغابة بأكملها أضاءت بشكل باهر. تألقتا مثل نجمتين رائعتين على صدر جاي، حتى إنهما أضاءتا الغابة بأكملها.

تجمعت حشود ضخمة من الناس في الميدان. كانت السماء مغطاة بالفعل بضوء شروق الشمس القرمزي.

كان الملك دول-دول برفقة حاشية كبيرة في الميدان. أجو الأسود يرتجف من الخوف، ويداه وقدماه مقيدة بالسلاسل. نُصِب مرجل ضخم وسط الميدان، يغمر أولئك القريبين بسحب كثيفة من البخار. الماء ينذر بالسوء وينفجر. انطلق الخدم الملكيون المبشرون في جميع أنحاء الميدان، وأعلنوا للناس أن إعدام أكثر المجرمين شرًّا، الذي تجرأ على عصيان إرادة الملك، سيُنفذ الآن.

واحد فقط من المدانين لم يكن هناك، لم يظهر إيفان.

تكلمت الحاشية حول دول-دول: «كما ترى أيها الملك، عبثًا تركت الجندي يرحل. لن يعود إلينا. من يريد أن يُغلى في مرجل بينما يستطيع الذهاب إلى بلد آخر وخدمة ملك آخر.»

قال دول-دول: «لا! لا! أعرف إيفان جيدًا، لن يفعل شيئًا كهذا، سيحفظ كلمة الشرف.»

لم تصمت الحاشية: «لكن، قد حان وقت مجيئه! الآن ستشرق الشمس!»

وللتأكيد فقط على كلامهم تناثرت حزمة كاملة من أشعة الشمس، وأدفأت شمسٌ برَّاقة ببحرها الذهبي الميدانَ والمرجل والملك مع حاشيته وأجو الأسود.

وفي تلك اللحظة ظهر الجندي إيفان في الميدان. بالكاد يتنقل من قدم إلى أخرى، ويمد ذراعيه ببطء ويتلمَّس ما حوله، كما يمشي المكفوفون عادة.

قال إيفان: «ها أنا ذا أيها الملك! يبدو أنني وصلت في الوقت المناسب.»

قال الملك: «نعم في الموعد! استعد للموت! لكن ما خطبك؟»

ثم أردف بحيرة وهو يلقي نظرة خاطفة على وجه إيفان: «أين فقدت عينيك؟»

بعد أن قالها ضحك دول-دول بمرح وبصوت مرتفع على مصيبة إيفان؛ لأن دول-دول لم يكن له قلب، ولم يعرف كيف يشعر بالشفقة والألم.

قال إيفان: «سأخبرك أيها الملك أين فقدتهما. فقط تعالَ إليَّ، وإلا فلن تسمع أي شيء.»

انحنى دول-دول نحو إيفان.

وهنا سحب إيفان بيدين مرتعشتين قميص الملك باهظ الثمن والمطرَّز بالذهب ولمس صدر الملك بقلب الحمامة.

صرخ الملك دول-دول بصوت مرتفع. بدا شحوب قاتل على وجهه وانتشر، وانهار وسقط بين أيدي رجال البلاط.

شعر بشيء جديد قوي في صدره ملأ كيانه كله بألم رهيب وسعادة في آنٍ واحد.

اعتنى جزء من الحاشية بدول-دول فاقد الوعي، بينما التقط آخرون إيفان واستعدوا لإلقائه في المرجل.

صرخوا وهم يسحبون إيفان إلى مكان الإعدام: «أراد قتل الملك! يجب أن نرمي به في المرجل الآن فورًا، وإلا فسوف يدمرنا جميعًا، هذا الساحر الأعمى!»

كان إيفان بالفعل على بعد خطوتين من المرجل، رفعته عدة أيادٍ في الهواء ... وفجأة ... سُمِع صوت الملك دول-دول الضعيف يقول: «توقفوا! أريده هنا! يا إيفان المسكين الأعمى!»

وفي لحظة واحدة، دفع الملك الحاشية ووجد نفسه أمام خادمه.

كان وجهه شاحبًا ومضطربًا. ذرفت عيناه الدموع جميلةً وواضحة كالندى. وضع يده على قلبه الذي كان ينبض بقوة لا تصدق.

ثم خاطب إيفان قائلًا: «اقترِب مني يا إيفان. اقترِب!»

ألقى دول-دول بنفسه على صدر خادمه المخلص، وهو يحتضن عنقه ويقبل عينيه العمياوين، ثم أمر بالإفراج عن الأمير الأسود أجو، واحتضنه مثل أخ، وأعطاه الحرية.

ثم خاطب الناس قائلًا: «أصدقائي، كنت ملكًا قاسيًا! لكن بفضل التضحية التي قدمها لي إيفان، أصبحت مختلفًا. والآن يا شعبي، أعدكم؛ لن أحكم فقط بحكمة، ولكن أيضًا بلطف ووداعة.»

انحنى الملك دول-دول للشعب، فاستجاب الشعب وصرخوا فرحًا.

هتفوا في آن واحد: «يعيش ملكنا العادل والحنون دول-دول.»

ومنذ ذلك اليوم، لم ينفصل دول-دول عن إيفان قط. ولم يعُد إيفان يخدم الملك، بل كان الملك هو من يخدم الجندي. لقد اعتنى به بكل طريقة ممكنة، وكان يقوده عبر الغرف الضخمة كما يمكن للابن المحترم أن يقود والده الضرير.

أخذ الجندي إيفان مكانه السابق مرة أخرى بالقرب من الملك. والآن لم يعُد يحسده أحد. عرف الجميع الثمن الرهيب الذي دفعه إيفان، ووقعوا بصدق في حب الخادم الملكي المخلص.

الحكاية التاسعة: النجمة العجيبة

في قلعة صغيرة رائعة، عاشت أميرة جميلة وذكية، دائمًا ما ترتدي فساتين ذهبية وقلائد ثمينة.

بكلمة واحدة، كانت أميرة مثل أميرات القصص الخرافية؛ ومثل كل أميرات القصص الخرافية، لم تكن راضية عن حياتها.

لقد أفسدوا إيزولدا الصغيرة (هذا هو اسم الأميرة) بتدليلهم لها. الأب دللها، والأم دللتها، الإخوة والأخوات الأكبر سنًّا دللوها، والحاشية الخَنوعة أيضًا دللتها. مهما كان الشيء الذي ترغب فيه الأميرة، كان يتحقق على الفور.

قالت إيزولدا ذات مرة وهي تضرب الأرض بقدمها: «أريد حصانًا أبيض بالكامل، مع نجمة سوداء على جبهته!»

ضربت الأرض بقدمها، واندفع الفرسان في كل الاتجاهات، كبارًا وصغارًا، نبلاء ومتواضعين، أغبياء وأذكياء، كلهم يبحثون عن حصان أبيض بنجمة سوداء على جبينه.

بحثوا في جميع أنحاء العالم. وأخيرًا وجدوه. وجدوه بصعوبة كبيرة في إسطبل خانٍ آسيوي.

طلبوا من الخان بيع الحصان، لكنه كان عنيدًا.

قال: «لن أتخلى عن حصاني بثمن بخس. الحصان جيد. إنه حصان جيد جدًّا. لن أعطيه لكم إلا مقابل حفنة كبيرة من الذهب.»

أعطاه الفرسان إسطبلًا كاملًا من الذهب، وأخذوا الحصان، وذهبوا به إلى إيزولدا. لكن إيزولدا لم تُرِد حتى النظر إلى الحصان.

قالت: «كنت أريده من فترة! الآن تعبت من الانتظار. كان يجب أن تُحضروه مبكرًا. والآن أريد قطة. قطة ذهبية ورقيقة، وعيناها مثل الفيروز ...»

لا يوجد خيار آخر؛ ذهب عشرون فارسًا للبحث عن قطة ذهبية بعينين فيروزيَّتين. بحثوا وفتشوا؛ لم يعثروا عليها في أي مكان. بحثوا لمدة عام كامل، ومر عام آخر وآخر …

لقد تحولت إيزولدا بالفعل من فتاة إلى فتاة أخرى، والفرسان يجوبون العالم؛ يبحثون عن قطة للأميرة.

وعندما اقتنعوا أنه لا توجد قطط بهذه الأوصاف في العالم كله، ولا يوجد ما يبحثون عنه، عادوا حزانى ويائسين بلا شيء؛ أيادٍ فارغة ورءوس منكَّسة.

على حدود الدولة، قابلتهم الساحرة الماكرة أورسولا. ركبت أورسولا على ذئب، وكانت الأرانب فوقها تحمل مظلة ملونة. رأت الفرسان، وضيقت عينيها بمكر وقالت: «اسمعوا! أنا أورسولا، سأعطيكم قطة ذهبية بعينين فيروزيتين، لكن يجب أن تخدموني لعشرين عامًا … كلكم باستثناء شخص واحد، هو الذي سينقل القطة إلى الأميرة.»

صاح الفرسان برضًا: «موافقون! موافقون!»

اقترعوا فيما بينهم، وبقي تسعة عشر فارسًا منهم مع الساحرة ليخدموها، بينما الفارس رقم عشرين أخذ القطة الذهبية ذات العينين الفيروزيتين من يد أورسولا وأنطلق إلى الأميرة إيزولدا.

وعندما نظرت الأميرة إلى القطة، ارتجفت من الغضب وقالت: «بحثتم لفترة طويلة للغاية. لا أريد قطة بعد الآن. كنت أريدها، لكنني الآن أريد شيئًا آخر. الآن أريد نجمًا من السماء. الأكبر والأجمل. ذلك الذي يضيء الآن في السماء.»

وأشارت الأميرة بإصبعها إلى نجم ساطع.

أشفق الفارس على رفاقه التسعة عشر الذين اضطروا بلا سبب لخدمة الساحرة أورسولا لمدة عشرين عامًا، لكنه لم يقل كلمة واحدة، وفكر فقط في كيفية تلبية الرغبة الجديدة للأميرة. من السهل أن تقول: اجلب لي نجمًا من السماء، ولكن كيف يمكن ذلك؟

ذهب الفارس إلى الحكماء الذين عاشوا في تلك المدينة طالبًا نصيحتهم. فكر الحكماء وفكروا، وقرروا أن الطريقة الوحيدة للحصول على النجم هي وضع سلم طويل يصل إلى السماء، والفرسان الأقوياء يتسلقون هذا السلم، ثم يمسكون بالنجم ويحملونه إلى الأرض.

نقل الفارس هذه النصيحة لرفاقه، وأعلنوا بالإجماع أنهم مستعدون لمساعدة الفارس في مهمته الصعبة. بدأ الفرسان في بناء سلم عالٍ. لا يأكلون، لا يشربون، فقط يركزون على مهمتهم. السلم موجود. وضعوه. لا … ما زالت المسافة كبيرة إلى السماء. شرعوا في العمل مرة أخرى، ثبتوا على الأول سلمًا ثانيًا ثم ثالثًا. كانت النتيجة سلمًا مرتفعًا لدرجة أن من

ينظر إلى الجزء العلوي منه يسقط على ظهره بالتأكيد. كان عليهم أن يرفعوا رءوسهم عاليًا جدًّا. ومع ذلك صعد الفرسان الشجعان هذا السلم إلى السماء.

صاروا وسط الغيوم ذاتها. أمامهم مباشرة نجمٌ لامع ومشرق. يبدو أنه يمكن للمرء الاستيلاء عليه بيده. ولكن بمجرد أن مد الفرسان أيديهم إليه، طفى النجم الصغيرة مبتعدًا.

وضعوا سلمًا أطول، وصعدوا مرة أخرى. ومرة أخرى فشلت المهمة. تحرك النجم أعلى وأعلى. وأومض كأنه يضحك منهم.

تعب الفرسان. وما إن نزلوا عن السلم حتى ارتموا تحته نائمين. لكن الأميرة لا تستطيع الانتظار حتى يجلب الفرسان النجم؛ فإما أن تضرب بقدمها الأرض بنفاد صبر، وإما أن تنفجر في البكاء من الغضب.

وفجأة أصبح الجو في غرفتها ساطعًا كالنهار، وسمعت صوتًا رقيقًا لشخص ما خلف كتفيها.

نظرت الأميرة حولها وكادت تصرخ؛ نفس النجم الصغير الذي أحبته كثيرًا، والذي حاول الفرسان عبثًا الحصول عليه من أجلها قد طار من السماء ووقف أمامها.

قال النجم الصغير بابتسامة: «لا تبكِ يا إيزولدا، لا تبكِ أيتها الأميرة المتقلِّبة. الدموع لن تساعد. أنتِ تطلبين المستحيل.»

صاحت إيزولدا بغضب: «لا شيء مستحيل لابنة الملك! كل رعايا والدي يحبونني، ومستعدون للتضحية بأرواحهم لتحقيق كل رغباتي. لقد أحضروا لي حصانًا أبيض بنجمة سوداء على جبينه، وحصلوا على قطة ذهبية بعيون فيروزية، وسوف أحصل على نجم من السماء، نعم! نعم! إنهم يحبونني كثيرًا!»

سألها النجم: «ولماذا يحبونك؟ ماذا فعلتِ لتجعليهم يحبونك؟ ماذا فعلتِ لتستحقي حبهم؟»

تفاجأت إيزولدا وقالت: «لماذا يحبونني؟! لماذا؟! أنا ابنة ملك قوي وثري، أنا أميرة، ومن المستحيل ألا يحبوني ...»

ضحك النجم: «ها! ها! ها! هذا يعني أنكِ تستحقين الحب فقط لأنك ابنة الملك؟ لكن أنتِ نفسك، هل فعلتِ على الأقل شيئًا يحبك الناس من أجله؟»

فكرت إيزولدا. أرادت أن تتذكر شيئًا طيبًا فعلته في الحياة، ولم تستطِع تذكُّر أي شيء.

وبعد صمت قال النجم الصغير: «الآن يا أميرة، سأريك أن الناس لا يحبون الملوك والأميرات فقط. انظري هناك ... تفضلي!»

ثبَّتت إيزولدا عينيها على ظلام الحديقة حول القلعة. وفجأة اختفت الحديقة الملكية. وبدلًا من ذلك رأت إيزولدا ساحة البلدة. ملأتها حشود من الناس. في منتصف الساحة سار رجل يلبس ملابس بسيطة ويحمل عصًا في يديه. تجمع الحشد مع صيحات حماسية عالية. انحنى بتواضعٍ استجابة للتحيات. وفي طريقه صادف المزيد والمزيد من الحشود من الناس. نظرت وجوه الجميع إليه بحب واحترام. كانت عيون الناس معلقة به بإعجاب.

سألت إيزولدا النجم: «من هذا الملك الذي يحبه الناس كثيرًا؟»

أجاب النجم الصغير: «أنتِ مخطئة، هذا ليس ملكًا، ولكنه رجل فقير بسيط. لكن هذا الرجل وجد طريقة لطباعة الكتب، وبهذا نشر نور العلم بين الناس الذين ما زالوا أميين وغير متعلِّمين. لقد جلب منافع كبيرة لبلاده، والناس يشكرونه على ذلك. لكن انظري؛ سأريك ما الذي يجعلك تكتسبين حب الناس.»

وفي الحال اختفت ساحة المدينة واختفت حشود الناس والشخص الذي يصيحون لأجله، وظهرت قاعة ضخمة أمام عينَي إيزولدا الذاهلتين. في منتصف القاعة سلالم ومنصة، وكلها مغطاة بالورود. هناك رجل يقف على المنصة. توَّج شخصان آخران رأسه بإكليل من الغار. عبَّر الأشخاص الذين ملَئوا القاعة عن سعادتهم بالصراخ العالي للرجل الذي يضع إكليل الغار. سقط كثير منهم على ركبه، وبعثوا له الآلاف من البركات بالدموع.

قالت إيزولدا: «يجب أن يكون ملكًا عظيمًا. انظر كيف يكرمه الناس!»

أجاب النجم الصغير: «أوه، لا! هذا ليس ملكًا؛ بل هو طبيبٌ وجد وسيلة لعلاج الناس من أخطر الأمراض وأسوئها. والناس الممتنُّون، الذين أدركوا كل مساعدات الطبيب، يحترمون طبيبهم. لكن انظري، انظري يا إيزولدا، انظري مرة أخرى!»

هكذا اختتم النجم حديثه.

نظرت إيزولدا. أين القصر والصالة مع المنصة، والرجل في إكليل الغار؟ لا يوجد شيء! كل شيء اختفى. فقط طريق طويل لا نهاية له أمام عينيها.

هناك مسافر على الطريق. الناس يركضون وراءه. الناس في عجلة من أمرهم للمُضي قُدمًا للنظر في وجه المسافر، ليقولوا له بضع كلمات متحمسة من الحب والاهتمام. وكم أضاء الامتنان في عيون هؤلاء الناس!

سألت إيزولدا النجم الصغير خوفًا من ارتكاب خطأ آخر: «من هذا؟»

أوضح النجم: «لقد كان رجلًا ثريًّا، والآن هو أفقر من أي متسوِّل في المدينة. وزع كل ما لديه على الفقراء، كل الأموال والثروات التي لديه؛ كل شيء حتى آخر قرش. ولهذا نال الكنز الأعظم ورضي به: حب الناس ...»

وبعد أن قال هذا، اختفى النجم، واختفى معه الضوء الرائع في غرفة إيزولدا. وسرعان ما نامت إيزولدا نفسها. لقد تعبت من كل الانطباعات التي رأتها اليوم.

وفي صباح اليوم التالي، اجتمع الفرسان والسيدات والحاشية عند باب الأميرة. كانوا في انتظار أوامر جديدة، وأهواء ورغبات جديدة لإيزولدا.

لكن الأميرة لم تأمر بشيء ...

سألتُ الجنية الزرقاء التي أخبرتني عن قصة الأميرة إيزولدا: «وماذا بعد؟»

قالت: «ماذا بعد؟»

في اليوم التالي، قالت الأميرة إنها لم تعُد ترغب في الحصول على النجم. عرف الفرسان مدى سرعة تغير رغبات الأميرة، ولم يُفاجئوا بذلك على الإطلاق. انتظروا بصبرٍ طلب الأميرة الجديد. ولكن مر يوم، ومر آخر، وثالث؛ ولم تطلب إيزولدا شيئًا، ولم تأمر بشيء.

«ماذا حدث لإيزولدا؟» كان الفرسان والحاشية في حيرة من أمرهم. حقًّا، ماذا حدث لإيزولدا؟

الحكاية العاشرة: حقيقة جاليا

حدث هذا منذ زمن بعيد.

كانت بساتين الكَرز تتحول إلى اللون الأخضر، وبالكاد يبرز العُشب الطري من الأرض، وبنفسج الربيع يتحول إلى اللون الأزرق في الغابة.

سعد الجميع، وابتهجوا. أما في كوخ جاليا، فكان الحزن والدموع. جاليا تبكي. والدة جاليا مستلقية على سرير بائس شاحبة، وجنتاها غائرتان، تسعل وتئن بهدوء.

حضرت النساء المسنَّات، ورشَشْن الماء المقدس على وجه والدة جاليا، ونظرن إلى عينيها الغائمتين الكبيرتين. قلن وهززن رءوسهن: «ستموت ... لن تتحمل حتى الغد.»

جاليا تبكي. كانت الأم دائمًا هادئة للغاية وحنونة. لقد أحبَّت ابنتها جاليا. كيف لا تبكي؟ كانتا فقط في العالم: الأم وجاليا؛ جاليا والأم. وفجأة تموت الأم.

جاليا تبكي.

آخر شعاع شمس جاء من خارج القرية، وغرقت البحيرة الزرقاء في زرقة أقوى. بهتت رائحة أقوى الزهور، وأبعد زنابق الوادي في الغابة، صرخت الطيور لآخر مرة قبل الليل، ونام كل شيء، وهدأ، وسكت حتى الصباح. نجم الليل أضاء في السماء، لامع، أنيق، وجميل. جلست جاليا عند النافذة، ونظرت إلى النجم وتذكرت كيف كانت تجلس هي ووالدتها دائمًا في المساء على عتبة الكوخ معجبين بالنجوم. والدتها تزداد حالتها سوءًا. سعلت بصوت خافت أكثر ووهن تنفسها.

وفجأة وبصوت رقيق هادئ، نادت جاليا: «طفلتي الحبيبة ... اجلسي معي ... اجلسي معي.»

تركت جاليا النافذة واندفعت إلى سرير والدتها، ولفَّت ذراعيها حول والدتها.

قالت الأم: «ليس لديَّ وقت طويل يا طفلتي. قريبًا، قريبًا جدًّا سأضطر إلى تركك يا حبيبتي.»

صاحت جاليا: «لا يا أمي! لا! لن أدعك تذهبين، لن أدعك تموتين!»

وعانقت والدتها بقوة أكبر.

وعانقت الأم ابنتها بيديها المرتعشتين.

قالت بوهن: «الوداع يا طفلتي العزيزة! وداعًا يا جاليا! وداعًا يا حمامتي. لا تنسي والدتك ... تذكري: والدتك تحبك وستنظر إليك باستمرار من السماء. يا طفلتي، كل أفعالك الجيدة ستسعدني. ليس لديَّ أي شيء أتركه لك يا ابنتي. لم يكن في قلبي سوى كنز واحد بينما كنت أعيش وأتنفس، والآن سأعطيكِ إياه يا ابنتي. هذا الكنز هو الحقيقة يا جاليا. لا تقولي إلا الحقيقة، وسيكون لديكِ دائمًا نور في قلبك وضياء في روحك! دائمًا، قولي الحقيقة، دائمًا يا جاليا! الحقيقة فقط! لا تخفي أي شيء، لا تكذبي على أي أحد! وداعًا الآن.»

وبعد أن تركت ابنتها بيد مرتجفة، ضغطت المرأة المحتضرة على قلب ابنتها، ولمست وجهها الطفولي الرقيق بشفتيها الحارَّتين، وسكتت إلى الأبد.

سقطت جاليا على جسد والدتها البارد، وبكت بصوت مرتفع، وانهالت على يدَي المتوفاة بالقبلات.

عادت النساء المسنات مرة أخرى، وحملن جاليا الباكية إلى كوخ آخر، وبدأن بأنفسهن في إلباس والدة جاليا ووضعها في النعش.

وجاليا تجلس بمفردها في هذا الوقت تبكي.

رأى نجمٌ من السماء الفتاة تبكي. تلألأ عبر نافذة الكوخ الفارغ، وكأنه يريد مواساة اليتيمة. رفعت جاليا عينيها الممتلئتين بالدموع إلى السماء، ونظرت إلى النجم الصغير، ومدَّت يديها إليه وهمست بصوت حزين مكسور: «ليس أمي! أمي ماتت! تعالي يا أمي، تعالي!»

كانت جاليا تبكي.

إنه الفجر. أشرقت الشمس فوق كوخ جاليا. هبط طائر كبير جميل على السطح. سأل الطائر: «من يبكي؟»

سأل ونظر إلى أسفل النافذة ورأى فتاةً. قال الطائر: «بنت جميلة!»

رفرف بجناحيه ووجد نفسه على النافذة بالقرب من جاليا. استدار الطائر إلى جاليا وطرق عتبة النافذة بمنقاره الطويل: «لماذا تبكين يا فتاة؟»

نظرت جاليا إلى الطائر، ورأت جناحيه العريضين، ومنقاره الطويل ولطفه، وعينيه المستديرتين، وشعرت على الفور بالثقة في الطائر الكبير. حكت له وهي تبكي كل أحزانها. أشفق الطائر على اليتيمة وقال لها: «أنتِ وحيدة في العالم، وأنا أيضًا وحدي. من الصعب والمحزن أن يكون كل واحد منا بمفرده، ولكن معًا، معًا سيكون من الأسهل علينا تحمل المشقة. اجلسي على ظهري يا فتاة، وسأطير بكِ إلى هذه البلدان؛ حيث يوجد صيف أبدي، حيث تمتلئ الغابات الضخمة التي لا يمكن اختراقها بالزهور العطرة، حيث تنمو الزهور البيضاء الضخمة على ضفاف النهر وتنظرين إليها معجبة بأشكالها الرائعة. سآخذك إلى حيث تسبح التماسيح الضخمة خارج النهر وتستمتع بأشعة الشمس بالقرب من الشاطئ، ويذهب عمالقة الأفيال إلى مكان الشرب في قطعان كاملة. سآخذك إلى هذه الأرض الرائعة يا فتاة. هل تريدين السفر معي؟»

نظرت جاليا حولها بعينين حزينتين. شعرت بالأسف للتخلي عن كوخها الأبيض وبساتين الكرز وقريتها الأصلية. لكن الفتاة تذكرت على الفور أن والدتها لم تعُد معها، ومن دون والدتها، الكوخ وبساتين الكرز وقريتها لم تكن بنفس الجمال.

قالت جاليا للطائر وهي تبكي بهدوء: «خذني بعيدًا أيها الطائر الكبير اللطيف، أينما تريد. أنا مستعدة للسفر معك بعيدًا، بعيدًا. حتى نهاية العالم!»

بمجرد أن نطقت جاليا بهذه الكلمات، وجدت نفسها على الفور على ظهر الطائر، الذي حلق بها على الفور في الهواء.

في البداية كان الطيران مُريعًا لجاليا. في الأسفل، كان الناس يركضون، ويبدون وكأنهم حشرات صغيرة من ارتفاع. الأكواخ والكنائس بيضاء، ومدن وقرًى بأكملها تومض. طار الطائر بسرعة مذهلة، فارتفع لأعلى وأعلى، حتى أصبح لا منازل ولا كنائس ولا قرًى يمكن رؤيتها ...

حلقت الغيوم في الأسفل، وفصلت الطائرَ وجاليا عن الأرض، عن العالم كله. غيوم فوق وتحت وفي كل مكان ...

شعرت جاليا بالخوف، وأغمضت عينيها واقتربت من الطائر. رفع الطائر جناحيه بقوة أكبر واندفع أسرع، وأعلى، نحو الشمس.

وعندما أنزلها الطائر بسرعة البرق إلى الأرض في حديقة فخمة ذات رائحة رائعة، سألته جاليا: «أين نحن؟»

امتدت الأزهار البيضاء في صفوف رفيعة وجميلة على جانبَي الطريق المؤدي إلى قصر ناصع البياض به أعمدة وشُرفة ضخمة. وعلى الشرفة، كان هناك الكثير والكثير من الناس

يرتدون ملابس ملونة مخطَّطة، ووجوههم داكنة اللون، وأجسادهم برونزية. وفي وسطهم، جلس رجل بلحية حمراء، ورأس أبيض ملفوف بشيء، وشفتين لامعتين ووجه كبير مهيب؛ لدرجة أن جاليا ارتعشت من الخوف بمجرد النظر إليه.

انحنى الشعب البرونزي على الأرض للرجل الرهيب وقالوا: «أنت ذكي وقوي. أنت حكيم ووسيم. أنت رائع. لا مثيل لك في العالم كله.»

والملك — لأن الرجل البرونزي ذا النظرة الرهيبة كان ملكًا — لوى رأسه بعناد، وهز لحيته الحمراء الناريَّة، وأجاب بصرامة: «أنتم لا تقولون الحقيقة. تقولون هذا فقط لأنكم تخافون مني، لأنكم تعلمون أن حركة واحدة من حاجبي يمكن أن تقتلكم!»

ارتمى الناس على الأرض واستمروا في تبجيل ملكهم: «أنت ذكي وقوي وحكيم وجميل!»

وظل الملك يهز لحيته النارية ويقول: «لا، أنتم تتملقونني فقط، لأني الملك، لا أُصدقكم.»

وفجأة، عند نفس الدرجات المؤدية إلى الشرفة رأى فتاةً وطائرًا. دُهش بشكل لا يوصف. من أين يمكن أن تأتي هذه الفتاة؟ تومِض ابتسامةٌ على وجهه. كان الأمر كما لو أنه خمَّن شيئًا؛ كما لو أنه قرر شيئًا ما فجأة. وهو ينظر حوله إلى رجال البلاط قال: «سأسألها عن الحقيقة في حديثكم.»

ثم التفت إلى جاليا وقال وهو يمسد لحيته الحمراء: «أخبريني يا فتاة، هل صحيح أنني مشع وقوي وحكيم وجميل؟»

وثبَّت عينيه الصارمتين المرعبتين على جاليا. أرادت جاليا الإجابة بنفس الشكل مثل الشعب البرونزي، حتى لا تُغضب الملك الرهيب، لكنها تذكرت فجأةً وصية والدتها؛ الحقيقة فقط. وبصوت حازم قالت: «لا أيها الملك. أنت لست مُشعًّا، لأن وجهك قاتم صارم. رأيت الشمس وهي مشعة وقوية؛ الكثير من الحرارة والضوء يأتي من شعاعها الواحد! لا أدري إن كنت حكيمًا أم لا، لكني أعلم أن الذي خلقك أحكم منك. لا، أنت لست جميلًا أيها الملك؛ لا يمكن لشخص لديه مثل هذه العيون أن يكون جميلًا. أرى السماء الهادئة اللطيفة، إنها جميلة، أما أنت فلا.»

وبمجرد أن نطقت جاليا الكلمة الأخيرة، اندفعت الحاشية الملكية في رعب: «إنها بلا عقل! لا بد أنها مريضة! ماذا تقول لسيدنا.»

ركضوا واندفعوا مثل قطيع طيور خائفة. وعبس الملك نفسه وأصبح أشد سوادًا من الليل. أغضبته كلمات جاليا. لم يكن معتادًا على سماع مثل هذه الأقوال واعتبرها مجنونة.

أمر الخدم قائلًا: «خذوها وافصلوها عن الجميع، دعوا أفضل أطبائي يعالجوها. لكن لا تسمحوا لها بالتواصل مع الناس حتى لا يسمعوا منها الثرثرة المجنونة!»

وبعد أن قال هذا لوَّح بيده. هُرع الخدم إلى جاليا وكانوا مستعدين للإمساك بها، لكن في ذلك الوقت خفق الطائر الكبير بجناحيه، وأجلس جاليا على ظهره، وفي دقيقة واحدة كان بالفعل على بعد عدة أميال من القصر الأبيض والشعب البرونزي.

همست له جاليا: «أخرجني من هنا أيها الطائر، لنذهب حيث يحب الناس الحقيقة ويستمعون إليها.»

وطارا، الطائر وجاليا، في الاتجاه الآخر، إلى بلد آخر.

لفترة طويلة، اندفعا عبر السماء الزرقاء، بين السحب البيضاء، بحثًا عن المكان الذي يمكنهما النزول إليه. ذهبا مباشرة إلى المرج، محاطين بالغابات الكثيفة وغير القابلة للاختراق. على العشب حول النيران جلس أناس ضخام. كان هناك عدة آلاف منهم. وكان من بينهم شاب أطول وأرفع وأكثر وسامة من الآخرين. كان وراء ظهر كلٍّ منهم سهام وأقواس وفئوس ورماح. قالوا لقائدهم الشاب النحيل المسلَّح أكثر من غيره: «أوه، أيها القائد الشجاع! لقد جمع أخوك جيشًا كبيرًا وهو يحاربنا. يقول إن نصف هذا البلد له، وإن هذه الغابة هي غابته، وإن مساكننا يجب أن تكون ملكًا لمحاربيه، وإنه قادم ليأخذ كل شيء منك، ومنا. لكن دعه يجمع المزيد من القوات، فنحن لسنا خائفين من أي شيء. كل شجيرة في هذه الغابة مألوفة لنا. سنحاصر الغابة ونهاجم أخاك ونهزم جيشه ونأتي به إليك. يمكنك قتله أو جعله عبدك.»

قال الشاب بتهديد: «نعم سأجعله عبدًا لي؛ لأن الموت خير من الذل. فليجرب الذل، ليعرف غضب أخيه!»

ولوَّح برمحه.

أطلق المحاربون صرخة جامحة والتفوا حول النار في رقصة مسعورة. وعندما توقفوا، وكادوا يسقطون من التعب، رأوا فجأة طائرًا كبيرًا مع فتاة على ظهره.

كانت جاليا تقف بالفعل أمام قائدهم الشاب وتتحدث إلى القائد الشاب النحيل: «أيها الشاب، أنت مخطئ! لا تقاتل أخاك، لأن والدك وهو يحتضر ورَّث لكما هذه الأرض. أنا أعلم أنك أخذت نصف حق أخيك منه وطردته من هنا. وإذا جاء أخوك إلى هنا مرة أخرى، فهذا حقه. وأنت مخطئ أيها القائد الشاب. لقد تصرفت بقسوة وخِسة.»

استمع القائد الشاب إلى جاليا. وكلما تحدثت، أصبح خطابها أكثر جرأة، وارتجف المحارب الجامح. انعكس الخوف والاحترام على وجهه في نهاية خطاب جاليا. سقط عند

قدمَي الفتاة وضرب على صدره وصرخ بصوت رهيب: «يا محاربيَّ! محاربيَّ الشجعان! الروح العظيمة نفسها ترسل لنا هذه الطفلة! الروح العظيمة نفسها تتكلم على لسانها! هي ترى قلبي وتعرف أفكاري. إنها ترى الحقيقة كاملة وتعرب عنها بلا خوف أمام قائدكم الجبار. لم يجرؤ أحد على إخباري بالحقيقة قبل الآن. هذا يعني أن الروح العظيمة هي نفسها أرسلت الفتاة إلى الأرض! هي سفيرة الروح العظيمة! إليكم أيها الكهنة! خذوا الفتاة، اصحبوها إلى هيكلنا، أجلسوها على عرش الكاهن الأول. ضعوا البخور أمامها واخدموها بشرف، تكريمًا لرسالة الحق! وأنا ومحاربيَّ ننحني لها على الأرض.»

وركع القائد الشاب على ركبتيه. وخلفه ركع كل محاربيه. وخرج رجل عجوز ذو لحية رمادية من الغابة الكثيفة. ألقوا على الأرض بأشياء غريبة وأطلقوا أصواتًا مبهَمة غير مفهومة.

ثم اقترب الشيوخ ذوو اللحى الرمادية من جاليا وانحنوا لها وقالوا: «يا رسولة الروح العظيمة! تعالَي معنا إلى معبدنا. هذا هو مكانك. ستعيشين في المعبد ليلًا ونهارًا، وسيندفع دخان أزرق على شرفك من مبخرتنا، وسوف نغني لك الأغاني المقدسة ونزينك بالورود. ستكونين ملكة معبدنا.»

وأخذوا جاليا بعناية من ذراعيها وأرادوا اصطحابها إلى غابة كثيفة، حيث كان معبدهم مختبئًا بين الأشجار. ملأ الرعب والخوف قلب جاليا في الحال.

صرخت بصوت يرتجف: «أين الحقيقة؟ منذ متى ينحني الناس للإنسان ويعتبرونه إلهًا؟ أين هي الحقيقة؟ هل الكلمة الصادقة نادرة هنا لدرجة أن الفتاة الصغيرة البسيطة التي قالت هذه الكلمة يخلطون بينها وبين الرسل؟ لا، لا أريد التكريم أو المجد. أيها الطائر الكبير، خذني بعيدًا، خذني بعيدًا عن هنا.»

والطائر الكبير موجود هنا بالفعل؛ فتح جناحيه، والتقط جاليا واندفع بها إلى السماء عاليًا، عاليًا، تاركًا المحاربين والكهنة مذعورين.

ومرة أخرى اندفع الطائر الكبير وجاليا بين الشمس والغيوم.

وأخيرًا تعِبا ونزلا إلى الأرض. يسمعان موسيقى رائعة وضحكات مرحة ونكات. شعرت جاليا بالسعادة في الأصوات الرنانة.

قالت: «احملني هناك أيها الطائر، حيث تأتي الموسيقى والأصوات.»

وبعد دقيقة، رأيا قلعة فاخرة مضاءة بشكل ساطع على البحيرة. القلعة بأكملها معلقة فوق الماء، تقف على صخرة عالية فوق بحيرة مظلمة ومضطربة.

تحت أضواء القلعة والموسيقى والمرح، السادة الذين يرتدون ملابس فاخرة، وحتى السيدات الجميلات الأكثر أناقة، كل هذا يتحرك في رقصة ناعمة بديعة. الديباج والذهب والأحجار الكريمة؛ كل شيء موجود، كل شيء يتلألأ ويتألق ويلمع مثل أضواء الثُّريات الكريستالية المعلقة من سقف القاعة.

وأمام الجميع تتقدم الملكة نفسها — صاحبة هذه القلعة والبلد بأسره الذي طارت إليها جاليا مع طائرها — جنبًا إلى جنب مع فارس جميل وأنيق.

قالت جاليا لنفسها: «أوه، يا لها من ملكة جميلة! عيناها زرقاوان داكنتان، مثل المياه في تلك البحيرة التي تلمع تحت نوافذ القلعة، وأيضًا هذا الإكليل الذي يتلألأ فوق رأسها، وشعرها الأصفر المرصع بالماس والأحجار الكريمة، ووجهها الطفولي تمامًا؛ هادئ ووديع ورزين.»

فكرت جاليا: «يا لها من ملكة حنون وجميلة. لا بد أنها تحب الحقيقة، وجميع رعايا هذه الملكة الطيبة يعيشون حياة طيبة!»

وبمجرد أن فكرت الفتاة في ذلك، من خلال ضجيج الموسيقى وضحك الراقصين المرح سمعت تأوُّهًا باهتًا وهادئًا.

ارتجفت جاليا.

وتكرر الأنين. جاء من الغابة الخضراء في الحديقة، مختبئًا بظلام الليل.

همست جاليا بحماسة: «دعنا نطير إلى هناك يا عزيزي الطائر، لنكتشف من يئن!»

انطلقا من القلعة المغمورة بالأنوار إلى الحديقة المظلمة، في ظلام الليل.

أصبح الأنين مسموعًا أكثر فأكثر عندما توغلت جاليا مع طائرها في عمق الحديقة. ظهر قوس القمر الباهت من وراء الغيوم وأضاء الفراغ الصغير. هناك بالقرب من جذع شجرة كبيرة وقفت فتاة صغيرة ذات وجه شاحب مُتَّسِخ. رُبِط ذراعاها وساقاها بإحكام بحبال كثيفة في شجرة. كان وجهها يحمل آثار معاناة شديدة.

سألت جاليا الفتاة: «ما خطبك؟ من قيدَك هنا؟ ولماذا تتأوهين؟»

همست الفتاة بصوت لا يكاد يُسمع من الضعف: «أنا خادمة الملكة الجميلة، تلك الملكة الجميلة التي ترقص وتستمتع هناك في القلعة. أمرت أن أُربط بشجرة وأنا أتضور جوعًا؛ لأنني منذ ثلاثة أيام تجرأت وأخبرتها أن الفارس الذي اختارته ليكون خطيبها لم يحبها، وأراد الزواج منها فقط ليصبح ملكًا. أنا أعلم أن هذا صحيح. ومن أجل كلمة الحق سأموت جوعًا.»

وبعد أن قالت هذا، تأوهت الفتاة بصوت خافت وحزن. كانت جاليا ترتجف بالكامل وقالت: «أسرع! أسرع يا طائري، دعنا نسرع إلى القلعة، دعنا نسرع إلى الملكة قبل فوات الأوان لتحرير الفتاة التعيسة وإنقاذها من الموت العنيف.»

انطلقا أسرع من الريح إلى القلعة.

وكما لو أن رعد السماء ضرب الراقصين، فقد أذهلهم ظهور فتاة صغيرة وطائر كبير في وسط القاعة. توقفت الموسيقى. توقف الزوجان كذلك. وفي دقيقة واحدة وجدت جاليا نفسها أمام الملكة الجميلة.

قالت الفتاة بصوت يرتجف: «اسمعي أيتها الملكة، أنت ترقصين وتستمتعين هنا، وهناك في الحديقة خادمتك تحتضر. هذا ليس جيدًا أيتها الملكة! لقد قالت خادمتك الحقيقة. لا يمكنكِ أن تكوني سعيدة عندما تفعلين الشر لجارك. إنني أطلب إطلاق سراح الفتاة التعيسة، ثم لتستمرَّ الموسيقى مرة أخرى، ويرقص الأزواج ويعلو صوت الضحك الممتع لضيوفك، أيتها الملكة! أنتِ لستِ امرأة طيبة؛ فأنتِ تعاقبين خدمك على الصدق.»

وبعد أن أنهت خطابها، نظرت جاليا إلى الملكة وكادت أن تموت رعبًا. ماذا حدث فجأة للملكة الجميلة؟ تحولت عيناها إلى السواد واستدارت مرة واحدة، مثل عينَي غراب، وتحول وجهها إلى اللون الأخضر والتَوَت شفتاها، وفجأة أصبح جسدها كله مُقززًا وقبيحًا.

صاحت الملكة في جاليا وضربت الأرض بقدميها: «فتاة فقيرة مثيرة للشفقة! كيف تجرُئين على انتقادي؟! يجب أن تموتي على الفور!»

وعلى الفور أمرت الحراس بإلقاء جاليا في البحيرة. نفذ الحراس أوامر ملكتهم، وأمسكوا بجاليا، وسحبوها إلى النافذة، وألقوا بها حيث كانت المياه المظلمة للبحيرة الضخمة.

سقطت جاليا في البحيرة، وانغمست في الأمواج الباردة وغرقت ميتة في القاع. وربما كانت ستصبح فريسة لحوريات البحر الضاحكات، لو لم يندفع الطائر الكبير المخلِص وراءها وسحب الفتاة الصغيرة الغارقة من الماء.

انتزع الطائر الكبير جاليا الميتة بمنقاره القوي، وسرعان ما صعد معها من الأرض والبحيرة عاليًا ... عاليًا إلى السماء. وهناك كانوا ينتظرون جاليا بالفعل. كانت تنتظرها مخلوقات بيضاء جميلة، أولاد وبنات بأجنحة فضية على ظهورهم. رأوا طائرًا بفتاة ميتة في منقاره، حملوا جاليا بين أذرعهم وأخذوها إلى الجنة.

لم يكن طريق المخلوقات المجنحة الصغيرة طويلًا.

وفجأة سمعت موسيقى رائعة. غنت جوقة غير مرئية أغنية رائعة حلوة. أحضر الأطفال المجنحون جاليا إلى الحديقة السماوية الفاخرة، ووضعوها في أرجوحة معطرة، مغطاة بالكامل بأوراق الشجر والورود، وهم يقفون حولها يغنون بأصوات جميلة رنانة لا يملكها غير الملائكة: «استيقظي ... استيقظي يا عزيزتنا جاليا! لقد جئتِ إلى عالم الحقيقة؛ الحقيقة النقية والجميلة، التي لن تجِديها على الأرض! استيقظي يا جاليا! يا عزيزتنا الصغيرة جاليا.»

لكن جاليا لم تسمع غناء الملائكة، ولم تشعر برائحة الزهور. ثم دون توقف عن الغناء، طار الأطفال المجنحون عاليًا فوق الغيوم، وبعد دقيقة عادوا مرة أخرى، يقودون بيدهم امرأة طويلة في ملابس بيضاء، وديعة وجميلة، مثل الحمامة. انحنت المرأة على جاليا الميتة ولفت ذراعيها الرفيعتين برفق حولها. نزلت دمعتان من عينيها على قلب جاليا، وفجأة عاد هذا القلب للحياة وارتعش. فتحت الفتاة عينيها، ونظرت أمامها وصرخت بصوت فرح، مدركةً أن المرأة المنحنية أمامها هي أمها: «أمي!»

همست المرأة البيضاء: «جاليا! جاليا! لقولك الحقيقة جمعني الرب بك مرة أخرى، حتى لا نفترق أبدًا. لقد حملك الطائر الكبير إلى عالم الحقيقة، إلى ذلك العالم حيث تعيش الحقيقة المبهجة والمنتصرة.»

عانقت الأم ابنتها بقوة وقبَّلتها إلى ما لا نهاية دون حساب. كانت الحديقة الفخمة عطرة، وغنت الملائكة ذات الوجوه الرقيقة ترنيمة عن حقيقة جاليا.

وحلق الطائر الكبير مرة أخرى إلى الأرض والناس، راغبًا في العثور على الحقيقة بأي ثمن هناك على الأرض. طار الطائر العنيد بمفرده، دون جاليا. وبقيت جاليا مع والدتها في المملكة اللازوردية.

حدث هذا قبل زمن طويل.

الحكاية الحادية عشرة: مملكة المرح

على بعد عشرات ومئات وآلاف الأميال، يمكنك أن تسمع دويَّ ضحكات مرحة وخالية من الهموم؛ ضحكات من الصباح حتى المساء، من شروق الشمس إلى الغروب، ضحكات مستمرة بلا انقطاع.

هؤلاء سكان مدينة المرح، الذين يعيشون في مملكة غريبة وفريدة من نوعها، لم يوجد مثلها من قبل ولا يوجد الآن، ولن يوجد في المستقبل.

كانت مملكة مسلية للغاية. هناك، لا يحزن أحد، ولا يبكي أحد، ولا يشكو أحد، ولا يمرض أحد ... الجميع يضحكون ويمرحون طوال الوقت بلا توقف؛ يضحكون أثناء السير ويضحكون أثناء الجلوس وعند العمل وعند الحديث، وحتى عندما يَخلدون إلى النوم تستطيع أن ترى الابتسامة على وجوههم ... الصوت الوحيد الذي تضمن سماعه عند دخول مملكة المرح هو الضحك، ولا شيء غيره.

لم يكن هناك حزن أو قلق في مملكة المرح. سكانها لم يعرفوا يومًا الفقر أو الحزن، لم يمرضوا قط ولم يتألموا، بل عاشوا سعداء وراضين حتى الشيخوخة، عاشوا معًا مبتهجين وماتوا مبتهجين وعلَّموا أحفادهم كيف يكونون مثلهم.

من بين جميع السكان المرحين، كان الملك أكثرهم سعادة. لم تترك الابتسامة الباهرة وجهَه قط. لم يكن هناك تجاعيد من الحزن على جبهته العالية، وكانت عيناه الملكيتان تتلألآن باستمرار من الضحك، لتصبح في النهاية ضحكة لطيفة ومبهجة واحدة.

في الصباح يستيقظ الملك المبتهج ويقرع الجرس وهو يضحك، ثم يظهر الخدم الملكي وهم يضحكون.

يأمر الملك: «هيا ساعدوني على ارتداء ملابسي.»

«في الحال يا صاحب الجلالة.»

يرتدي الملك ملابسه ويخرج إلى شرفة قصره ليسمع ضحك رعاياه في عاصمة مملكته.

في الشوارع، يركض الناس بمرح، وترى السائق يبتسم للركاب ويعرض عليهم خدماته، والتاجر يمزح مع زبائنه ... الجميع يضحكون ويمرحون كالعادة ... الجميع ... الكبار والأطفال، الشباب والشيوخ، السادة والخدم، الجنرالات والجنود، الأغنياء والفقراء، كما لو أن المملكة في حالة احتفال وسعادة دائمة.

وفجأة، ذات يوم وجدوا شخصًا غريبًا يتجول في الشارع، امرأة عجوزًا نحيفة ومنحنية أكثر من أي شخص شاهدوه من قبل في مملكة المرَح والرضا والسعادة والضحك، وقالوا لأنفسهم سيدةٌ مثل تلك لم نقابل مثلها من قبل في مملكتنا!

كان وجهها كئيبًا حزينًا وعيناها مرتبكتين ونصف عمياء من الدموع، وخداها أجوفين من النحافة، وتبرز من تحت منديل رأسها ضفائر رمادية خفيفة.

فوجئ شعب المملكة وهم يقولون: «من هذه العجوز الغريبة؟»

واقتربوا منها ليتعرفوا عليها ...

«من أنتِ أيتها الجدة؟»

قالت بصوت مبحوح وغريب: «أنا «العَوَز» ... لقد جئت إليكم من الدولة المجاورة؛ حيث أعيش مع إخوتي الحزن والمرض والجوع والمعاناة، كنا نتجول دائمًا من بلدة إلى أخرى، وأحيانًا نبقى في بعض الأماكن لفترة، ولكن لم يأتِ أحد منا إلى هنا من قبل. لذا قررت أن أستطلع المكان، وإن كنت أستطيع البقاء هنا، ولكن يبدو أنني لا أستطيع ... أنتم جميعًا تملكون الطعام الكافي والجيد الذي يُرضيكم ويجعلكم سعداء.»

تجمَّعوا حولها بفضول وقالوا: «هل تعرفين كيف تضحكين؟ هل تبتسمين أصلًا؟»

حاولت العجوز أن تقف باستقامة وعيناها تومضان بالغضب وقالت بفخر: «لا أعرف كيف أضحك ... ولا أريد أن أضحك، بل أكره الضحك ... العَوَز يجب ألا تضحك، بل أبكي، وإذا بقيتم معي فسوف أعلمكم كيف تبكون أيضًا ...»

تساءل أهل المملكة وهم يبتسمون: «البكاء؟ لا ... لا أيتها السيدة العجوز. نحن سوف نعلمك كيف تضحكين ... سوف ترَين.»

قاطعتهم العجوز: «لا، لن يحدث هذا أبدًا!»

كرر السكان المبتهجون: «بل سنفعل بالتأكيد. سوف نعلمك. الآن دعينا نضحك، هل أنتِ موافقة؟»

كررت العجوز: «أبدًا! لا تطلبوا مني الضحك، إذا ضحكت فستقعون في ورطة.»

لكن الواقفين ضحكوا وظنوا أنها مزحة: «هل يمكن أن توجد مشكلة بسبب الضحك؟ لا يا جدتي يجب أن تضحكي معنا، حسنًا؟»

قالت العجوز بخفوت: «لن أفعل.»

«حسنًا، على الأقل قليلًا ...»

«أبدًا!» ومهما حاول سكان المملكة المرحة إضحاك المرأة العجوز، لم تثمر مجهوداتهم شيئًا.

وفي النهاية، غضب السكان المبتهجون، لكنهم غضبوا بالطبع بطريقتهم الخاصة؛ بطريقة مضحكة.

قالوا: «إنها جريمة ألا تضحكي في مملكتنا المرحة، بل أيضًا أن تكوني حزينة عندما نضحك جميعًا. لن ندع هذا يمر، وسنسلمك أيتها العجوز إلى المحكمة، وهناك القضاة الأذكياء يقررون كيفية التعامل معكِ.»

ودون تردد، أخذوا المرأة العجوز وسحبوها إلى المحكمة.

وعندما أحضروا العجوز إلى القاعة الكبيرة في المحكمة سأل القضاة: «ما ذنب تلك المرأة العجوز؟»

حكى السكان ما حدث معهم في الشارع مع المرأة عندما رفضت مجرد الابتسام.

بدأ القضاة في التشاور حول ما يجب القيام به. ما عقوبة المرأة العجوز الحزينة؟ حدثت هذه المشاورات بالطبع وهم يضحكون ويقهقهون، ولم يكن القضاة وحدهم، بل الحرس على الأبواب أيضًا، وضحك الكُتاب الذين يكتبون قرارات القضاة، وحتى العاملون داخل المحكمة. وحدها العجوز التي تُدعى «العوز» لم تضحك أبدًا.

تشاور القضاة لفترة طويلة، وفي النهاية توجهوا إليها بالحديث وقالوا: «اسمعي أيتها العجوز، من الأفضل لك أن تتوبي عن هذا الحزن وتضحكي، وسوف نطلق سراحك.»

لكن العوز رفضت العرض بغضب: «لن أضحك ... لم أفعلها من قبل، ولن أفعلها الآن ... عملي هو أن أُحزن الناس، والضحك يتنافى مع عملي.»

ضحك القضاة: «لكننا سنجعلك تضحكين. إذا كنت لا تريدين ذلك فسنعاقبك بكل صرامة بقوانين المملكة المرحة.»

أعلنت العجوز بكبرياء: «عقاب! أنا لست خائفة من أي شيء!»

مرة أخرى بدأ القضاة في التشاور وارتفع صوتهم مثل سرب من النحل. تجادلوا وهم يضحكون ويقهقهون كل فترة وأخرى.

وأخيرًا أنهوا الاستشارة وأصدروا الحكم الآتي: «بما أن المرأة العجوز رغم كل التحذيرات عنيدة ولا تريد الضحك، أمرنا بطردها فورًا من حدود مملكة المرح، وعدم السماح لها بالبقاء بين السكان المبتهجين ولا دقيقة أخرى.»

كان الجميع يستمعون لهذا الحكم في صمت، لكن السكان الذين قدَّموا المرأة العجوز للمحاكمة لم يعجبهم أمر القضاة وقالوا: «ما هذه العقوبة! نحن لا نوافق بالتأكيد ... يجب أن نجعل هذه المرأة العجوز تبتسم على الأقل! هذا مُهم.»

طالب السكان باستدعاء القضاة مرة أخرى لكي يجدوا عقوبةً مختلفة للمرأة العجوز.

تحققت هذه الرغبة على الفور. اجتمع القضاة مرة أخرى وتداولوا الأمر وتجادلوا قليلًا، وأصدروا العقوبة الآتية: «أغلِقوا جميع أبواب مملكة المرح ولا تدَعوا العجوز تخرج حتى تبدأ في الضحك.»

لكن الناس المبتهجين ظلوا غير راضين عن هذا الحكم.

صرخ السكان بطرق مختلفة: «هل ستنجح مثل هذه الجملة مع امرأة عجوز عنيدة؟ لا نظن هذا ... لا، على ما يبدو لا يستطيع القضاة البتَّ في هذه القضية، من الأفضل أن نذهب إلى ملكنا، سوف يأمر المرأة العجوز بالضحك.»

واندفعوا ناحية المرأة وأمسكوا بها وجروها إلى القصر.

تجمع السكان تحت قصر الحاكم وهم يصرخون: «أيها الملك الكريم العادل ... اسمعنا يا ملكنا! نريد حكمك في امرأة وصلت مؤخرًا إلى مملكتنا وهي حزينة ولا تريد الابتسام. أيها الملك، اطلب منها أن تبتسم على الأقل!»

خرج الملك إلى الحشد خارج القصر واقترب من المرأة العجوز، وقال وهو مبتهج كعادته: «ما بكِ أيتها العجوز لمَ لا تضحكين؟! هيا أنا آمرك أن تضحكي معنا.»

قالت العجوز بصوت متململ: «لا لن أفعل ...»

«لقد أمرتك أن تضحكي!»

«أبدًا ... لا يمكن.»

أراد الملك أن يتخذ وجهًا صارمًا، لكنه لم يفلح وأخذ يضحك في النهاية، ولكن المرأة العجوز هي من ازدادت كآبة مع الوقت.

فكر الملك المرح في عقاب أو طريقة لجعل المرأة العجوز تلبي رغبة الناس وتضحك، وأخيرًا قال: «اسمعي أيتها الجدة، عقابًا لك على عنادك، أحرمك من أغلى شيء في العالم. من الآن فصاعدًا أمنعك من الضحك إلى الأبد. مهما كان شعورك بالمتعة، لم يعد مسموحًا لك بالضحك ... هذا عقاب رهيب! ستشعرين به يومًا ما أيتها العجوز؛ لأنه مثلما لا يمكن

للأسماك أن تعيش دون ماء، ومثلما لا يمكن لأي مخلوق على الأرض أن يتنفس دون هواء، لا يمكن للإنسان أن يعيش دون ضحك. وأنتِ يا سيدة عَوَز محرومة الآن من هذه النعمة العظيمة!»

وكان مردود هذا الحكم ضحكًا مُدوِّيًا من الشعب المرح. كانوا مسرورين جدًّا بالحكم الذكي لملكهم. وبينما الشعب غارق في الضحك، انفجرت العجوز أيضًا ضاحكة على عكس كل التوقعات!

انفجرت بضحكة صاخبة ومثيرة للاشمئزاز، بصوت مرتفع لدرجة أنها غطت على ضحك الآلاف من الناس المبتهجين.

انفجرت ضاحكة لأنها لم تكن تتوقع مثل هذه العقوبة. لقد حُرمت من شيء كانت تشعر نحوه باشمئزاز لا يقاوَم، شيء لم تستطع تحمله هي نفسها!

هي التي لم تضحك في حياتها قط تُمنع من الضحك؟! كان الأمر جديدًا وغير مألوف ومضحِكًا، لدرجة أن العجوز العَوَز لم تستطع تحمله وانفجرت ضاحكة لأول مرة في حياتها الطويلة.

ضحك الملك أيضًا في النهاية. لقد حقق مراده وجعلها تضحك من أجل الشعب، ومن خلفه ضحك المحاربون والحراس وباقي الناس.

سُمِع هدير الضحك من كل مكان، لكن المرأة العجوز نفسها ضحكت بأعلى صوت، ومع ذلك فإن الأمر غريب، إنه كلما زادت ضحكتها أصبح ضحك سكان المملكة المرحة من حولها أقل حدة!

أصبحت وجوههم التي كانت دائمًا مبتهجة للغاية متحفظة أكثر، وأكثر جدية. بغضِّ النظر عن شدة محاولتهم للعودة كما كانوا، فإن ضحكتهم تخرج بطريقة ما مخنوقة وحزينة.

تضحك المرأة العجوز بصوت أعلى وأعلى.

مر يوم، ثم آخر، ثم ثالث، ولم يعُد صوت الضحك يُسمع مطلقًا داخل المملكة ... لم يُسمع إلا الضحك الغريب المبحوح الشرير للسيدة العجوز ...

ولم يمر وقت طويل قبل أن يختفي الضحك كليًّا؛ لقد نسي السكان كيف يضحكون. حتى الملك نفسه لم يعد يبتسم. أصبح وجهه حزينًا وشاحبًا، وعيناه اللتان لم تعرفا إلا الابتسام صارتا تحدقان الآن في الشوارع حيث المرأة العجوز تمر من منزل إلى منزل ... تضحك وتقفز وترقص ... وأينما ظهرت كان الناس يختبئون، حتى نسوا أنهم الشعب الذي كان مبتهجًا في يوم من الأيام.

مر بعض الوقت، ولم يعد من الممكن سماع المزيد من الضحك في المملكة المرحة. لقد نسي الناس بالتأكيد كيف يضحكون.

كانوا يطلبون منها أحيانًا التوقف: «أيتها العجوز نرجوك هذا يكفي ...»

لكن العجوز لم توافق قط، وكانت تقول: «لقد جعلتموني أضحك، والآن لا أستطيع التوقف ...»

ومنذ هذه اللحظة، أو ربما في اللحظة التي أصر الشعب على ترك بهجته وإرغام شخص آخر على شيء لا يريده، تحولت المملكة من مملكة المرح إلى مملكة الحزن.

الحكاية الثانية عشرة: نرجس الطحَّان

كانت هناك طاحونة فوق النهر الأزرق، انتصبت وغنَّت. كان كل ما بداخلها يغني: العجلات التي تدفقت من خلالها المياه، والرحى الثقيلة، والطحَّان نفسه؛ كان شابًّا يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا واسمه نرجس.

كان الطحان الشاب يغني بصوت أعلى وأفضل من الجميع. كان يغني جيدًا.

استمع إليه الناس وقالوا: «نرجس يغني مثل طائر في السماء.»

وكانت تلك حقيقة. امتلأت طاحونة نرجس بتيار فضي صاخب، قيثارة غير مرئية، صوت ذهبي ملائكي.

كان يتيمًا، وحده في الدنيا. لم يتذكر والدته أو والده. ماتا في وقت مبكر. كان نرجس يبلغ من العمر بضعة أشهر في ذلك الوقت. أشفق الطحَّان العجوز على الصبي اليتيم، وأخذه، ربَّاه مثل ابنه، ثم مات، وترك الطاحونة لنرجس. وهكذا بدأ نرجس نفسه في إدارة الطاحونة. يعمل ويغني.

وكم كان صوته جميلًا!

حتى طيور الرب تحسده على صوته الرقيق. لم يفاجأ الناس بوجهه المسرور، السعيد، الراضي دائمًا.

كانوا يسألون: «لماذا هو مسرور؟ ولماذا هو راضٍ؟»

هناك كثيرٌ مثله حزانى، ولكنه يغني ويترنَّم بابتسامة مرحة لا تفارق شفتيه. هو نفسه وحيد، يتيم وفقير مثل فأر كنيسة. ما فائدة الطاحونة؟ يجلبون له قليلًا من الحبوب ليطحنها، ويدفعون القليل؛ يعيش حول الفقراء، وهؤلاء لا يمكنهم الدفع، ولا يوجد لديهم الكثير! ومع ذلك ليس حزينًا. إنه يغني، يشدو مثل العندليب، رغم أنه لا يملك الكثير ليعيش به.

سمعت الساحرة الشريرة الخبيثة أورسولا عن الطحان السعيد الراضي، وأرادت أن ترى بهجته بأم عينيها. اختبأت تحت عجلة الطاحونة وبدأت تنتظر الطحان الغريب، الذي كان سعيدًا جدًّا بقدره المكتوب. الجميع يعرف أن الساحرة الشريرة لا تستطيع أن ترى السعادة والرضا دون أن تحسدها.

رأت الطحان سعيدًا حقًّا وراضيًا تمامًا عما قُدر له، ويبتسم بمرح ويغني ويُنشد.

تمتمت الساحرة بخبث: «حسنًا! انتظر يا عزيزي ... سأجعلك تتوقف عن الغناء.»

وفي لحظة استدارت وسحرت الطحَّان نرجس وتغلبت عليه بحلم مسحور. نام الطحان ورأى نفسه في المنام ملكًا يضع تاجًا ذهبيًّا، ومن حوله حاشية مطيعة، أمامه ثروات لا حصر لها في قصر بِلَّوري.

خفق قلب نرجس بفرح وسعادة! فكر! هل من السيئ أن تكون ملكًا قويًّا؟

لكن الحلم الجميل لم يدُم طويلًا.

استيقظ الطحان، ولم يكن أمامه قصر ولا حاشية ولا كنوز. لا يوجد سوى فتاة ذات جمال غامض. تقِف وتبتسم له. كانت أورسولا الشريرة هي التي تحولت إلى جميلة حتى لا تخيف الطحان بوجهها القبيح والمثير للاشمئزاز والغضب.

اتسعت عينا نرجس وغمغم في حيرة: «من أنتِ؟»

ضحكت الجميلة بصوتٍ رنان وقالت: «لا! من الأفضل أن تخبرني من أنت؟»

أجاب نرجس: «أنا طحَّان. منذ لحظات كنت أحلم أنني ملك.»

ثم تنهَّد وهو يتذكر الحلم الرائع وأنه ليس ملكًا.

سألته الجميلة: «هل من الجيد أن تكوت ملكًا؟»

أجاب نرجس: «جيد، بل رائع على ما يبدو. سأبذل قصارى جهدي لأكون ملكًا لمدة عام على الأقل ... سوف يتم تكريمي في كل مناسبة. سيكون لديَّ المال ولن أحتاج لتربية الدجاج، سآكل طعامًا لذيذًا وحُلوًا من أطباق فضية، وأشرب من كئوس ذهبية. كم هذا رائع. سأعيش في قصر من الكريستال، وأرتدي حريرًا ومخملًا، وقبعة من الريش، وحذاءً جميلًا ... كل هذا جميل.»

ابتسمت أورسولا قائلة: «هل تريدني أن أجعلك ملكًا؟»

اشتعلت النيران في عينَي الطحان مثل النجوم. واحمرت وجنتاه بسعادة وأراد القفز من الفرح، لكن ساقيه تراجعتا، وسقط على ظهره على العشب.

سقط ونام بهدوء في لحظة واحدة ... وانحنت عليه أورسولا الشريرة ومدت يدها وهمست بصوت مشئوم: «قف، استدر، دُر حول نفسك، انظر للخلف، وانحنِ لي، وعندما تستيقظ، لن تتذكر الماضي. بعد نوم طويل، سيصبح الطحان ملكًا.»

استيقظ الطحان، ونظر حوله في دهشة ورأى أنه مستلق على سرير من ريش البجع، سرير واسع، تحت مظلة من المخمل ويرتدي رداءً ذهبيًّا. وبجانب السرير تاجٌ ملَكي. الملابس مصنوعة من أجود أنواع الحرير، ومزينة بدانتيل بطول ثلاث ياردات على طول الحواف. البطانية من الساتان، مطرزة بالذهب، خفيفة كالريش. والخدم يتزاحمون باحترام ووقار. في الأيام الخوالي، كان من المحتمل أن يكون الطحان الفقير نفسه خادمًا لواحد من هؤلاء الرجال المحترمين. لكن الوضع الآن مختلف. ودون أي تردد، مد قدميه العاريتين للخدم وقال بإيجاز: «ألبسوني الحذاء.»

تحرك الخدم ونزلوا على ركبهم وبدءوا في سحب الجوارب الحريرية من قدمَي الطحان بحذر شديد. كان الأمر كما لو أن هذه ليست قدمين، بل مِزهريتين من الكريستال يخشون كسرهما.

ثم جاءوا للملك الطحان بحذاء ذي سيور من ألماس وثوب تحتي. لم يحرك نرجس يده أو قدمه وهو يرتدي ملابسه، بل استدار يمينًا ويسارًا فقط، مثل دُمية بزنبرك. كل شيء فعله الآخرون. وعندما كان يرتدي القطع الأخيرة من ملابسه، جاء عبدان صغيران وأحضرا إبريق ماء فضيًّا. حمَّم الخدم الملك وأخذوه إلى غرفة الطعام.

كان في انتظاره وجبة إفطار غنية في غرفة الطعام. لا يوجد نوع من أصناف الطعام لم يوضع على الطاولة!

صعِد نرجس إلى الطاولة، وكان على وشك الاستيلاء على أفضل الأطباق، عندما ظهر أمامه فجأةً رجلٌ طويل القامة يرتدي رداءً داكنًا ونظارات على أنفه.

قال باحترام: «لا يمكن لجلالتك أن تتناول هذا، وإلا اضطربَت معدتك الغالية.»

ثم سحب الطبق من أمامه.

أمسك النرجس بطبق آخر. لكنَّ غضبه كان عظيمًا عندما أوقفه الطبيب (وهو رجل طويل يرتدي نظارات، كان رئيس المحكمة وطبيبه الخاص) مرة أخرى باحترام.

قال: «هذه وجبة ضارة لك يا جلالة الملك» وأضاف: «لا أفهم كيف يأتون بهذه لأصناف. مثل هذه الأطباق لا يمكن للملك أن يأكلها.»

وبدلًا من الطعام اللذيذ، دفع بكوب من الحليب وقطعتين صغيرتين من الخبز الأبيض إلى نرجس، مضيفًا أن صحة الملك مهمة لرعاياه، ومن ثَم يجب لجلالته أن ينفذ ما يُسعد الشعب، وقد تم تعيينه لمراقبة طعام الملك باستمرار، وأنه مضطر لأن يتأكد ألا يأكل الملك عن طريق الخطأ شيئًا ضارًّا أو أن يأكل كثيرًا.

لم يكن هناك ما يمكن أن يفعله نرجس، واضطُرَّ أن يكتفي بالحليب.

قال نرجس بفرح بعد أن أنهى فطوره: «أريد أن أذهب في نزهة على الأقدام!»

ولكن بعد ذلك أحاط به نحو عشرة من ذوي الشعر الرمادي وسط حشد.

قالوا وهم ينحنون أمامه: «جلالة الملك، أليس من الواجب الاهتمام بشئون الدولة أولًا؟»

لا يمكن للملك أن يرفض الاهتمام بشئون الدولة، وكان على نرجس أن يخضع. تبع الشيوخ ذوي الشعر الرمادي إلى غرفة ضخمة تُسمى الغرفة الملكية. وهناك بدأ الملك ومستشاروه ذوو الشعر الرمادي في الاهتمام بشئون الدولة المهمة.

كانت الشمس مشرقة بقوة وعظمة. نظر من النوافذ. اندفعت حشود من المشاة في الشوارع. كانت الأشجار تتحرك بلطف خارج النوافذ كما لو كانت تريد أن تقول: «اترك عملك أيها الملك، وتعالَ إلينا كما تشاء، في الخارج!»

أراد الملك الشاب بشكلٍ لا يقاوم أن يخرج من المكتب الممل، أن يهرب من الشئون المملَّة والمستشارين المملِّين. وبالتأكيد لم يلاحظوا نفاد صبره، فكانوا يتحدثون كلهم، ويتحدثون إلى ما لا نهاية. وأخيرًا نهض الجميع وغادروا المكتب الملكي وهم ينحنون.

بدا أن الملك الشاب عادت إليه روحه.

غنى وهتف في داخله: «سأمشي في الحقول والغابات بحرية!»

بدأ يغني أغنيته، لكنه تذكر على الفور أنه أصبح الآن ملكًا، وأن الملوك ليس من المفترض أن يغنوا أغاني مرحة، وسكت.

وفي غضون ذلك، ظهرت الحاشية للملك الشاب على عتبة المكتب الملكي.

قالوا: «جلالة الملك، هل تود الذهاب في نزهة؟ الخيول مستعدة وتنتظر عند المدخل.»

وأمسك أقرب الشخصيات نرجس من تحت ذراعه، بحذر وعناية، كما لو كان مريضًا، وقادوه إلى أسفل الدرَج.

فوجئ نرجس برؤية العربة عند الشُّرفة. لقد أراد أن يركض عبر الغابات والحقول، ولكنهم أجلسوه في صندوق مغلق واستمتع بالعالم من خلال النوافذ الزجاجية فحسب.

فكر الملك قائلًا لنفسه: «حسنًا، على الأقل سأستمتع برحلة سريعة!» لكنه كان مخطئًا.

كانت الخيول تمشي. بالكاد تحركت العربة إلى الأمام، حيث رغب الناس في تحية ملكهم. ملَئوا الشوارع، وازدحموا حول العربة ولم يتركوا العربة تتحرك. علاوة على ذلك، صرخ الناس بجنون: «مرحبًا» حتى طنَّت أُذنا نرجس. وكان سعيدًا عندما توقفت العربة مرة أخرى عند مدخل القصر ورافقته الحاشية بعناية إلى غرفة الطعام حيث كان العشاء مُعدًّا.

غطت المائدةَ أطباقٌ وفيرة وفاخرة، لكن خادم الملك وضع أجزاءً صغيرة على طبق الملك. ونرجس، بكل رغبته في تناول أطباق شهية حتى يشبع، انتهى به الأمر شبة جائع.

نهض غاضبًا وغير راضٍ من أمام الطاولة.

قال بحدة: «أريد أن أذهب إلى الحديقة!»

لم يخاطب أحدًا.

قال الحارس الذي حمل القوس: «أوه يا صاحب الجلالة، لسوء الحظ رغبتك مستحيلة. لقد تأخر الوقت بالفعل، وبالكاد سيكون لديك الوقت للاستعداد للحفل الذي من المقرر إقامته الساعةَ التاسعة.»

حرك نرجس قدمه بغضب، لكنه ذهب ليرتدي ملابسه على أي حال.

تجمعت درزينة من الخدم حوله مرة أخرى. كان يجلس أمام المرآة. ظهر مصفِّف الشعر وبدأ في تجعيد شعر نرجس الجميل في حلقات رائعة. ثم ألبسوه بدلة ضيقة مطرزة بالذهب ومرصعة بالأحجار باهظة الثمن. لم يكن نرجس معتادًا على ارتداء مثل هذه الملابس. جلس متجهمًا. وإلى جانب ذلك، كان متعبًا.

شعر بالضيق وعدم الراحة في ثوبه الجديد. كان العرق يتصبب على وجهه.

ارتدى الملابس لأن الحفل سوف يستمر لساعتين كاملتين. وعلى صوت الموسيقى، محاطًا بحاشية رائعة، ذهب الملك نرجس إلى قاعة الاحتفالات، وامتلأت القاعة بأكملها بالأضواء.

عندما مر في القاعة، انحنى له الجميع، لكن لم يجرؤ أحد على التحدث إليه، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، حتى إن نرجس في النهاية شعر بالملل وبدأ في التثاؤب.

لاحظوا ذلك ... أحضر رجال البلاط فتاة طويلة قبيحة إلى الملك الطحان، وقالوا إنها ابنة ملك مجاور قوي، ويجب على الملك الرقص معها في بداية الحفل.

لم تحب السيدة نرجس. كانت طويلة جدًّا وممتلئة. أراد بعدها أن يرقص الفالس معها، لكن الحارس همس في أذنه محذرًا أن الملك لا يُفترض أن يرقص الفالس.

وبمجرد مغادرة الحجرة، اقترب أقرب شخص من نرجس وقال بهدوء: «حفلة الليلة هي الأنسب يا جلالة الملك لاختيار عروس. اجتمع في قصرك كل بنات أشرف الملوك والأمراء. يبقى لك فقط يا سيدي أن تختار من بينهن من تستحق أن تصبح ملكة.»

ابتسم نرجس. لم يكن يكره الزواج من فتاة شابة جميلة. مشى حول الدائرة النبيلة للضيوف والأميرات والنبيلات والدوقات. ولكن ما أثار استياءه الشديد أنه لم يجد واحدة تسعده بجمالها.

كان جميع الأميرات والدوقات والملكات يرتدين فساتين أنيقة ومربوطة بإحكام. خصرهن رقيق مثل الدبابير، وبالكاد يتنفسون في الكورسيهات الضيقة. كانت وجوههن مُبيضة بشدة. قصات الشعر القبيحة الضخمة لم تُصلح الوضع، لقد أدت تلك القصات إلى ثقل الرءوس وشد الشعر. كن أيضًا يتحركن بشكل غير طبيعي في أحذيتهن الضيقة ذات الكعب العالي، وبَدَون لنرجس مثل دُمى الساعة. كن يبتسمن بشكل مزيف مثل الدُّمى وهن يحركن شفاههن.

وفجأة، صدمت عينَي نرجس فتاةٌ تقف بمفردها بعيدًا عن الأخريات. لم تكن ترتدي زيًّا فاخرًا، ولا شعرًا كثيفًا، ولا حذاءً ضيقًا بكعب عالٍ. كانت ترتدي ملابس متواضعة للغاية. لكنها كانت أجمل من كل الأخريات.

شخصية ساحرة، وجهٌ أحمر، يدان بيضاوان، ابتسامة مرحة وخلَّابة، عينان تتألقان بالرضا، فستان بسيط، مئزر حريري، وشاح أنيق؛ كل هذا سَحَر الملك في لحظة.

نظر نرجس إلى الفتاة ولم يستطِع الاكتفاء من النظر. غرس مظهرها حبًّا شديدًا في قلبه.

قال بفرح: «ها هي عروسي!»

ذهب إلى الجميلة. صعد إلى المرأة البسيطة الفاتنة وأخذها من يدها.

وفي اللحظة نفسها، امتلأت الغرفة بضحك ساخر. أسرع أقرب رجل إلى نرجس بأقصى سرعة.

قال له: «ماذا تفعل يا مولاي! هذه خادمة بسيطة. إنها موجودة هنا فقط في القاعة لمعرفة ما إذا كان أيٌّ من هؤلاء السيدات والأميرات والدوقات والملكات المهمات يُردن أي شيء. كيف يمكن لخادمة بسيطة أن تصبح عروس الملك! وبالقوة تقريبًا أُخِذ الملك بعيدًا عن الخادمة الجميلة. لكن نرجس لم يعد يسمع كلماته. اندفع من قاعة الرقص؛ أولًا إلى الحديقة، ومن هناك إلى الشارع، إلى الحقل، إلى الغابة، إلى غابة واسعة.»

وهناك سقط على العشب الناعم المبلل وصرخ بحزن: «يا له من رعب. من الممل أن يكون المرء ملكًا! لا يمكنه أن يتحكم بوقته، ولا يمكنه أن يرتبط بالشخص الذي اختاره قلبه! سأتنازل عن كل شيء للشخص الذي يعيدني كما كنت؛ الطحَّان المتواضع نرجس!»

قال ذلك ونام على الفور، لأن أورسولا، التي كانت بجانبه، سمعت حديثه وقررت إعادته إلى حياته السابقة مرة أخرى.

وفي الصباح، استيقظ نرجس ليرى أمامه الطاحونة الجميلة، والعجلات تطن، والماء يتدفق برنين أزرق كريستالي. قفز على قدميه وغنى بفرح وسعادة؛ غنى كما لم يُغنِّ من قبلُ طوال حياته.

الحكاية الثالثة عشرة: القفاز الحي

عاش في هذا العالم فارسٌ شرس وقاسٍ. شرس حتى إن الجميع كانوا يخشونه، سواء كانوا يعرفونه أم لا. عندما يظهر على ظهر حصانه في الشارع أو في ساحة المدينة، يتفرق الناس في اتجاهات مختلفة، وتصبح الشوارع والساحات فارغة. وكان هناك ما يجعل الناس يخافون الفارس أكثر، فقد كان إذا ظهر أحدهم في وقت غير مناسب ومرَّ أمام الفارس بطريق الخطأ، يدهسه في غمضة عين تحت حوافر حصانه حتى الموت، أو يقطع جسده إربًا بسيفه.

كان طويل القامة، نحيفًا، بعينين تلمعان مثل النيران، وحواجب ملتصقة على نحو متجهِّم، ووجه عبوس أرعب الجميع. في لحظات الغضب، لم يكن يعرف الرحمة، وأصبح فظيعًا، وابتكر أعنف العقوبات لأولئك الذين كانوا سببًا في غضبه، ولأولئك الذين لفتوا انتباهه بطريق الخطأ. في ذلك الوقت، لم يكن من المُجدي تقديم شكوى إلى الملك بشأن الفارس الشرس؛ فقد كان الملك يعتز بفارسه الشرس لكونه قائدًا بارعًا، فأكثر من مرة قاد القوات الملكية وحقق انتصارات على الأعداء وغزا العديد من الأراضي. هذا هو السبب في أن الملك يقدر الفارس الشرس ويشجعه بطريقة لم يكن ليفعلها لأي شخص آخر. والفرسان والمحاربون الآخرون، على الرغم من أنهم لم يعجبهم الفارس الشرس، لكنهم قدَّروا شجاعته وذكاءه وولاءه للملك والبلاد ...

كانت المعركة تقترب من نهايتها.

سار الفارس الشرس لابسًا درعًا ذهبيًّا بين صفوف القوات مُلهمًا محاربيه المتعبين والمنهكين.

هذه المرة كانت المعركة صعبة وشديدة للغاية. في اليوم الثالث، قاتل المحاربون تحت قيادة الفارس الشرس، لكن النصر لم يُكتب لهم. كان لدى الأعداء الذين هاجموا الأراضي الملكية المزيد من القوات. دقيقة أو دقيقتان وكان العدو سينتصر بلا شك، وكان سيقتحم القصر الملكي مباشرة.

ظهر الفارس هنا وهناك في ساحة المعركة، وحث جنوده على استجماع آخر ما بقي لديهم من قوة من أجل طرد الأعداء.

فجأة ابتعد حصان الفارس، ولاحظ قفازًا حديديًّا على الأرض، مثل ما كان يرتديه جميع الفرسان تقريبًا في ذلك الوقت. دفع الفارس الشرس الحصان ليجعله يقفز فوق القفاز، لكن الحصان لم يتحرك. ثم أمر الفارس أحد الشبان أن يلتقط القفاز ويعطيه له. ولكن بمجرد أن لمسه الفارس، قفز القفاز — كما لو كان حيًّا — من يده وسقط مرة أخرى على الأرض.

أمر الفارس به مرة أخرى، وحدث الشيء نفسه مرة أخرى. وليس هذا فحسب؛ فبعد أن سقط القفاز الحديدي على الأرض، تحرك مثل يدٍ حية. تحركت الأصابع بشكل متشنج وانقبضت مرة أخرى. أمر الفارس برفعه مرة أخرى عن الأرض، وهذه المرة أمسك به بإحكام في يده، واندفع إلى الصفوف الأمامية لقواته، وهز قفازه في الهواء. وفي كل مرة يرفع فيها القفاز عاليًا، كانت أصابع القفاز تنقبض أولًا، ثم تنفتح مرة أخرى. وفي تلك اللحظة بالذات، كما لو كانت إشارة، اندفع الجنود نحو العدو بقوة متجددة. وحيثما ظهر الفارس بقفازه بدا أن محاربيه المتعبين والمنهكين قد عادوا للحياة واندفعوا نحو العدو بقوة مضاعفة. مرت بضع دقائق فقط وهرب الأعداء، وبدأ رسل الفارس الشرس يعلنون النصر …

تحرك الفارس فخورًا ومنتصرًا بين صفوف مقاتليه المتعبين والمنهكين، متسائلًا لمن ينتمي القفاز الغريب، لكن لم يرَ أحد مثل هذا القفاز حتى ذلك الحين، ولم يعرف أحد من أين أتى …

قرر الفارس الشرس معرفة صاحب القفاز الغريب بأي طريقة كانت، وبدأ يتجول في جميع المدن وجميع القرى والبلدات، يهز اكتشافه في الهواء، ويسأل من أضاع قفازًا. لكنه لم يعثر على صاحب القفاز الحي. وفي إحدى المدن التقى الفارس الشرس بصبي صغير قال له: «سمعت من جدي أن مآب العجوز تعيش في الغابة. إنها تعرف كل أسرار العالم، وربما تكشف لك عن سر القفاز الحي أيها الفارس.»

أمره الفارس بصرامة قائلًا: «دعنا نذهب إليها!»

ثم لكز حصانه، وانطلق إلى الغابة. وانطلقت الحاشية الخاضعة وراءه.

عاشت السيدة العجوز مآب في قلب غابة كثيفة ومظلمة. وعندما رأت القفاز لمعت عيناها مثل المشاعل الساطعة في ظلام الليل، وأصبحت أرجوانية اللون.

قالت بصوت أجوف: «تُمسِك بسعادة عظيمة بين يديك أيها الفارس النبيل. ليس كل الناس يجدون مثل هذا الكنز! هذا القفاز الحي هو قفاز النصر، ألقى به القدر عمدًا في طريقك. عليك فقط أن تضعه بين يديك، وسيكون النصر دائمًا حليفك!»

ابتسم الفارس الشرس بسعادة، ولبس القفاز في يده، ومنح مآب الذهب بسخاء، وانطلق من الغابة الكثيفة إلى العاصمة الملكية.

مر أسبوع.

لم يُسمع أي شيء عن الحِيَل القاسية المعتادة للفارس، ولم يُسمع أنه أعدم أي شخص في نوبة غضب، ولم يُسمع أنه أساء إلى أحد.

دائمًا ما كان الدم يتدفق مثل نهر حول الفارس الشرس، ويُسمع الآهات والبكاء والأنين. فماذا حدث الآن؟

قبل أسبوع، حاول الفارس أن يضرب أحد المارة بسيفه. ولكن فجأة سقطت يده المشدودة بشكل متشنج بأصابع القفاز الحي، وسقط السيف الثقيل على الأرض مع رعشة.

أراد الفارس التخلص من القفاز المزعج من يده، لكنه تذكر في الوقت المناسب أنه سيمنحه النصر، وأوقف نفسه.

ومرة أخرى أراد الفارس أن يوجه حصانه إلى حشد الناس المحيطين به، ومرة أخرى ضغطت أصابع القفاز الحية على يده لدرجة الألم، ولم يستطع تحريكها للسيطرة على الحصان. ومنذ تلك اللحظة بالذات أدرك الفارس أنه لا جدوى من مخالفة القفاز الحي، وأن هذا القفاز يمنعه من الأعمال القاسية. وتوقف عن سحب سيفه من غِمده لقتل الأبرياء.

لم يعد الناس يخافون الآن من الخروج من منازلهم إلى الشوارع في الوقت الذي كان يمر فيه الفارس الشرس.

ظهروا الآن في طريقه دون خوف، وأثنوا على الفارس لانتصاراته على أعدائه.

بدأت الحرب من جديد ...

لفترة طويلة، كان الجار البعيد للملك، وهو حاكم بلد غني، يُغري الفارس بمهاجمته والاستيلاء على ملكه. قال للملكه: «انظر! جارك البعيد أغنى منك، وعلى الرغم من أنك أقسمت بالصداقة والسلام الأبديَّين معه، فإنك إذا هزمته واستوليت على ممتلكاته، فستصبح أقوى وأغنى ملك في العالم.»

أطاع الملك كلام فارسه المفضل. قال الملك: «الفارس محق، سأحتل بلد جاري وأستولي على ثروته!»

وأمر بتجهيز حملة جديدة.

التقى الجيشان في ساحة المعركة.

اجتمعت فرق الفارس مع فرق الملك الجار.

كان الفارس هادئًا وواثقًا من نتيجةِ المعركة.

كان يعلم أن قفاز النصر في يده.

أشرقت الشمس، وغابت مرة أخرى. أشرق القمر، وغاب، وأشرق مرة أخرى. غنَّت الطيور، وسكتت، وغنت مرة أخرى، وقاتل الجنود إلى ما لا نهاية.

كانت معركة طويلة.

طويلة وأصعب من أي وقت مضى.

وقف الفارس الشرس جانبًا، موجهًا المعركة، واثقًا مسبقًا من انتصار جنوده.

وفجأة رأى بعينيه مشهدًا غير مسبوق؛ انتصر الأعداء وهرب محاربوه.

اندفع غاضبًا هو نفسه إلى المعركة، لكنه اضطر إلى التراجع. أحاط به الأعداء من جميع الجهات.

دفع حصانه وخرج من ساحة المعركة.

سار الفارس إلى العاصمة، ملطخًا بالدماء وسقط عند قدمَي الملك.

بكى قائلًا: «لا تلُمني أيها الملك! لست أنا السبب. ولكن العجوز مآب هي المذنبة في هزيمة جيشك. لقد خدعتْني لكي ألبس قفاز الهزيمة والعذاب. مُرْهم أن يعدموها أيها الملك. أن يعدموها بأكثر طريقة قاسية رهيبة يمكن أن تخطر ببالك!»

مع أول أشعة الشمس، تدفقت المدينة بأكملها إلى الساحة. في هذه الساعة المبكرة من الصباح، تقرر إعدام العجوز مآب، التي تم إحضارها من الغابة في اليوم السابق. تقرر

حرق مآب على وتد، حتى لا تخدع الناس من الآن فصاعدًا، ولا تعطيهم قفازَ الموت بدلًا من قفاز النصر.

أخذوا مآب إلى الساحة، وأخرجوها من العربة، وقادوها إلى منصةٍ مرتفعة، حيث كان الحطَب مُكدسًا لإشعال النار.

وضعوها على المنصة وربطوها بالحبال في عمود. ووقف الفارس الشرس أمام العمود، وصاح بضحكة شريرة في وجه مآب: «لقد خدعتِني يا مآب! لهذا ستموتين ميتةً قاسية! وسأعطي إشارة الإعدام بالقفاز ذاته الذي كان من المفترض، حسب كلامك، أن يجلب لي النصر.»

بهذه الكلمات رفع يده ليشير إلى الجلادين بإشعال النار لكنه صرخ في ذعر. لم تتحرك اليد. كما لو سُكب عليها الرصاص. كانت معلَّقة بلا حياة بجانب جسده. ثم فتح فمه راغبًا في إصدار الأمر ببدء الإعدام، ولكن في نفس اللحظة ارتفع القفاز الحي بيده، وضغط بقوة على فمه حتى كاد يخنقه.

صرخ الفارس مذهولًا من الرعب: «أنقذيني يا مآب! أنقذيني.»

نزلت مآب ببطء من بين النار، وقطعت الحبال دون أي جهد، واقتربت من الفارس وقالت: «أنا لم أكذب عليك. القفاز الحي هو حقًّا قفاز النصر. في كل عمل صحيح سيمنحك النصر في أي مكان وكل مكان. وفي المعركة الفاشلة الأخيرة، كان سيعطيك النصر لو لم تذهب إلى الملك المجاور بأهداف أنانية للاستيلاء على ثروته. لو أردت الدفاع عن ملكك أو وطنك أو شرفك ما كنت لتعاني من الهزيمة، ما دمت على الحق وفي عمل نزيه. اعلم أن القفاز الحي لن يخدمك إلا في كل الأعمال الصالحة والصادقة! وعلى أي حال، لقد أوقفك في تلك اللحظات التي أردت فيها إراقة دماء الأبرياء! انتصر على نفسك! لقد انتصرت عندما هاجم أعداء أشرارٌ بلدك. إذا استمررت في الدفاع بهذا الشكل، فسوف يكون معك في المستقبل!»

وبعد أن قالت هذا، اختفت مآب مثل ظل ذاب في الهواء.

تحققت تنبؤات مآب.

ساعد القفاز الحي الفارس في جميع أعماله الصالحة، وأعطاه النصر، وكان يوقفه كلما بدأ أي مهمة شريرة وظالمة.

هتف كل الشعب باسمه، وبدلًا من الفارس الشرس، أطلق عليه الناس لقب الفارس الطيب والنبيل.

الحكاية الرابعة عشرة: سيف الملكة

كان للملك آرثر ثلاث بنات؛ ثلاث أميرات رقيقات، جميلات ولطيفات. لكن أفضلهن كانت هي الكبرى؛ الأميرة سلام المبتهجة والمرحة؛ عيناها تتألقان مثل نجوم السماء، وابتسامتها لا تفارق شفتيها، ضحكة فضية بين الحين والآخر تُحيي صمت القصر الضخم. وبالنسبة للجميع، عند النظر إلى الأميرة المبهجة يشعرون بالسعادة. ولا تزال ضحكة الأميرة سلام ترن مثل الجرس، وعيناها تتألقان مثل النجوم.

الحياة حول الأميرة سارت على قدم وساق. كل مساء تقام حفلة في القصر، ومهما كان اليوم، فإن الأميرة ترتدي ملابسها الأنيقة. تنطلق الأبواق، ونباح الكلاب، والضحك المبهج للسيدات والسادة عبر الغابة. وفي المساء، تضيء قاعات القصر الفخمة، ويأتي الضيوف، ويبدأ الرقص حتى فجر الصباح. الأميرة سلام ترقص أكثر من غيرها، وتطارد الغزلان والأرانب البرية أكثر من غيرها. الحفلات الراقصة ورحلات الصيد تُقام من أجلها تحديدًا. والملك آرثر يحب أن يسلي ابنته الحبيبة.

لكن حياة الفتاة في المملكة اقتربت من نهايتها. كبرت بسرعة وحان وقت الزواج، وتزوجت الأميرة سلام من ملك بلد بعيد.

غادرت سلام إلى مملكة زوجها، وتوقفت حفلات الرقص في قصر الملك آرثر، وتوقف المرح، وحتى صيد الغزلان توقف.

ومع الملكة الشابة، غادر العديد من الشخصيات المرموقة البلاط، حيث قرروا مواصلة خدمة أميرتهم في البلد الأجنبي البعيد.

عاشت سلام بسعادة مع زوجها، لكن سعادتها لم تدُم طويلًا؛ فبعد أقل من عام سقط زوجها الملك عن حصانه أثناء الصيد ومات في الحال. أصبحت سلام أرملة.

أهل البلد الأجنبي خلال الفترة القصيرة من إقامة سلام أحبوها وتمنوا أن تحكم البلاد بعد وفاة الملك، وتوسلوا إلى سلام ألا تذهب إلى والدها، بل أن تبقى على العرش.

وافقت سلام، ولكن على ما يبدو، لم تكن تحب إدارة شئون الدولة، والتفكير بجدية، والاستماع إلى الطلبات والشكاوى المملة من الناس، والحكم في المحاكم، والجلوس مع أحكم أهل الدولة. الأميرة سلام لا تحب مثل هذه الأشياء. ما تحبه هو مطاردة غزال رشيق تحت أشعة شمس الربيع، أو أن تدخل حلقة رقص مرِح في القاعات الأنيقة! الحياة السارة والسعيدة تغري الملكة.

لم تحزن سلام طويلًا على وفاة زوجها. بدأت الحفلات ورحلات الصيد مرة أخرى. عيَّنت اثنين من كبار الحكماء لحكم الشعب. كان الحكيمان من مملكة أخرى، من نفس المملكة التي أتت منها سلام. لم يحبا أهل البلد الأجنبي البعيد؛ فكيف يحكمان هذا الشعب؟ لم يعرفا شيئًا ولم يهتمَّا بشيء إلا جعل العاصمة وقصر الملكة أجمل. أما القرى والأحياء الأخرى، فسواء كانوا جائعين أو شِباعًا، فلم يرغبوا حتى في معرفة أخبارهم.

في تلك المملكة، بدأ كل شيء يسير بشكل خاطئ وعشوائي، وأصبح الناس فقراء، وبدءوا يتذمرون ويشكون بصوت عالٍ.

لكن همهمة الناس وشكاواهم لم تصل إلى الملكة سلام. فبعد كل رحلة هناك رحلة جديدة، وبعد كل حفلة هناك حفلة جديدة. عاشت الملكة حياة سعيدة ولم تفكر ولم تعرف كيف كان شعبها يعاني. تسأل الملكة الحكماء كيف يعيش رعاياها، ولا تجد على شفاههم إلا إجابة واحدة: «الجميع سعداء أيتها الملكة، يباركون لكِ ليل نهار.»

وبهذا واصلت الملكة المبتهجة والسعيدة الاستمتاع وتسلية نفسها.

بدأ الشعب يتذمر أكثر وبصوت عالٍ، وقرروا أخيرًا أنه من الضروري إزالة تلك الشخصيات التي أغرقت البلد بأسره في المشكلات والبؤس، وطلبوا من الملكة تعيين آخرين مكانهم، وليس من دول أخرى، ولكن من شعبهم الذين يحبون الناس ويعرفون كيف يحكمونهم.

كان صباحًا مبكرًا في شهر مايو المشرق.

كانت الشمس دافئة، والطيور تزقزق بمرح، والسماء زرقاء صافية خلابة وجميلة جدًّا. استيقظت سلام بقلب مبتهج وسعيد.

في هذا اليوم، كان ميعاد حفلة كبيرة، وقد استعدت الملكة سلام لها مسبقًا وتابعت كل الاستعدادات بمهارة.

قفزت الملكة بمرح من السرير ورأت وجوه حاشيتها وخادماتها خائفين، وشفاههن بيضاء مثل الطباشير ترتعش. الرعب مكتوب في كل العيون.

همسوا خائفين: «أيتها الملكة لقد أتى الحكماء ويريدون رؤيتك.»

لم يعد الشعب يطيعهم، بل ينادونك ويحدثون ضوضاء ويصرخون. الحكماء لا يعرفون ماذا يفعلون.

كانت سلام مندهشة. لم تعرف من قبلُ أن الشعب يمكن أن يتمرَّد. كان الوضع دائمًا هادئًا ومسالمًا.

ارتدت سلام ملابسها الملكية، ونزلت على الدرج الواسع المغطَّى بالسجاد برفقة جميع سيدات البلاط مع العديد من الفرسان الذين عاشوا باستمرار في القصر.

في القاعة السفلية بالقرب من الدرج، كان ينتظر بالفعل اثنان من أهم الشخصيات المرموقة في المملكة.

وبمجرد أن رأوا سلام، انحنوا وأشاروا بأيديهم للحراس. وعند هذه الإشارة، خرج اثنان من ذوي الشعر المجعَّد من حشد رجال الحاشية. كانا يمسكان بأيديهما وسادة مخملية. ووضعوا سيفًا ذهبيًّا على الوسادة.

ركع الخدم ووضعوا السيف عند قدمَي الملكة.

سألت سلام باندهاش: «ما معنى ما يحدث؟»

ثم تقدم الحكماء بظهر منحنٍ وقالوا: «الناس يصدرون ضجيجًا، لقد جُنُّوا أيتها الملكة! لا يريدون أن يستمعوا إلينا. لقد جمعنا بالفعل القوات لمعاقبة المتمردين، وستكون أنت أيتها الملكة على رأس المحاربين المخلصين وفي يدك سيف. أمسكيه وقودي القوات ضد المتمردين.»

استمعت سلام إلى كلمات كبار الحكماء وفكرت بعمق، ورأسها ذو الشعر الذهبي مُتدلٍّ، وحركت عينيها بشكل غامض. شعرت بالأسف والحزن في نفسها.

على الرغم من أن الأشخاص الذين عاشت بينهم كانوا غرباء عنها، إلا أنها أحبتهم. والآن بدأت الملكة في التفكير في مدى ضآلة اهتمامها بالأشخاص الذين طلبوا منها بثقة البقاء في البلاد بعد وفاة زوجها. الآن فقط تذكرت أنها لم تسأل الناس قَط عما إذا كانوا سعداء، وما إذا كانوا راضين، ووثقت بالحكماء لإدارة كل شيء. هل من الممكن أن تتبع الآن نصيحة تلك الشخصيات وتذهب بحد السيف ضد أولئك الذين أرادوا جعلها ملكة لهم؟

لا! لا! لن تفعلها! لن تسفك دماءً، رغم أنها غريبة عنهم، لكنهم وضعوا أنفسهم تحت سلطتها. خلاف ذلك ستكون قادرة على تهدئتهم. من الضروري فقط معرفة سبب قلقهم، وما الذي يريده رعاياها.

شقيقتا سلام، الأميرتان اللتان حضرتا لزيارتها في اليوم السابق للمشاركة في الحفل، همسا في أذنَي الملكة: «دعينا نخرج من هنا يا سلام! دعينا نعُد إلى والدنا! دعينا نذهب إلى مملكتنا الأصلية! لماذا تهتمين بشعب أجنبي يا سلام! إنهم لا يريدون طاعة الحكماء الذين عينتِهم؛ لذا اتركيهم. والدنا لديه ثروة كافية، وقصور كثيرة، وسوف تعيشين هناك بسعادة كما تعيشين هنا.»

ابتسمت سلام وهزت رأسها الجميل وأجابت أختيها: «أنتما تقدمان لي نصيحة سيئة يا أختيَّ العزيزتين. منذ أن أصبحتُ ملكة هذا البلد، لم يعد الناس الذين يعيشون هنا غرباء عني. لا، لقد أصبحوا أقرب. يجب عليَّ الاعتناء بهم. والآن، أولًا وقبل كل شيء، يجب أن أكتشف ما حدث، يجب أن أعرف ما حجم المصيبة في بلدي.»

تساءلت الملكة: «من المحق، ومن المخطئ؟»

بدأ الحكماء يتحدثون بقلق: «لا أيتها الملكة، ليس هناك وقت لتحديد من هو المحق ومن هو المخطئ. الناس يزأرون ويثيرون الشغب. الجيش ينتظر. احملي سيفك أيتها الملكة وقومي بقيادة الجيش قبل فوات الأوان.»

أجابت الملكة بصوت عالٍ: «لا، لا أحتاج السيف.»

ودفعت السيف بعيدًا عنها بقدمها، ونزلت بسرعةٍ درجات السلم. خرجت بخطوات سريعة إلى الشرفة، ومن هناك إلى حديقة القصر، واقتربت من شجرة خضراء تنمو في ركن الحديقة، وقطفت منها غصنًا صغيرًا وهمست: «أنت شجرة السلام، شجرة السلام والهدوء والصداقة! أتمنى أن يراك شعبي في يدي بدلًا من سيف عدواني ويفهموا أن لا مكان للكراهية بينهم وبين ملكتهم.»

وخرجت ومعها غصن السلام للشعب.

هدأ الشعب.

هدأ على الفور عندما رأى ملكته.

تألقت عيناه بالأمل والسعادة. ملأت صيحات الترحيب الأجواء. بدَوا متحمسين وسعداء.

وسُمع الهتاف في كل مكان: «تحيا الملكة.»

وعندما رأى حشد من الآلاف غصنًا في يد الملكة سقطوا على ركبهم منحنين. سارت سلام ببطء مباشرة في حشد الناس الذين تجمعوا.

وقفت في المنتصف، وقالت بصوت مرتفع وبوضوح إنها جاءت لتكتشف من أساء إلى أحبائها، ومن المسئول عن مصائبهم، وكيف يمكنها مساعدتهم. ثم خرج شيوخ شِيب الشعر من الحشد وأخبروا الملكة بكل مآسي الناس وأحزانهم.

عرفت سلام كل شيء. سمعت وفهمت. أدركت أن الحكماء ظلموا شعبها وأساءوا إليه رغمًا عنها.

تألمت وخجلت الملكة. إنه لأمر مُخزٍ أن الترفيه والاحتفالات سلبت منها كثيرًا من الوقت الثمين، الوقت الذي كان ينبغي أن تخصصه لشعبها.

وكلما علمت سلام المزيد من رعاياها، اشتعل حبها لهم أكثر. ثم أعطت عهدًا كملكة بالتخلي عن المرح والمتعة وتكريس حياتها كلها لخدمة شعبها.

وحافظت الملكة سلام على كلمتها.

الحكاية الخامسة عشرة: هدية الجنية

نشر الملك ذو اللحية الفضية كثيرًا من الأفراح وكثيرًا من السعادة حوله. عاش جميع رعاياه في مملكته حياةً رغدة ومريحة. لقد ساعد الفقراء والمساكين، وأطعم الجياع، وأتاح المأوى للمُشرَّدين. باختصار، ساعدَ كل من يحتاج إلى مساعدته. وكانت مملكة الملك ذي اللحية الفضية أسعد مملكة في العالم كله. لذلك أطلق عليها الناس اسم المملكة السعيدة. لم يُسمع هنا صراخ أو آهات، ولم تظهر دموع ولا أحزان، ولم يكن هناك ما يقال عن الحروب. عاش الملك ذو اللحية الفضية الحكيم اللطيف الحنون في سلام وانسجام مع جميع جيرانه. لهذا كان محبوبًا من قِبل أهل البلد والأجانب، سواء من الجيران القريبين أو البعيدين، والملوك والأمراء والدوقات والبارونات الأجانب. وكان محبوبًا للغاية لدى رعاياه. كان مهتمًّا بهم جدًّا ولطيفًا، ويعتني برفاهيتهم كما ينبغي للأب المحب أن يعتني بأطفاله.

لكن لا أحد على وجه الأرض لديه سعادة كاملة. لم يكن الملك ذو اللحية الفضية المحبوب سعيدًا بشكل كامل أيضًا.

كان الملك وحيدًا، ليس لديه عائلة، ولا زوجة حبيبة، ولا أطفال محبون.

منذ سنوات عديدة أخذ الموت ابنته الوحيدة. كان موت حبيبته ذا تأثير كبير على نفسه، لكنه اعتقد أن الانشغال بحكم رعاياه سيُنسيه حزنه. لكنه لم ينسَ. في كل عام كان الملك يشعر بالوحدة أكثر فأكثر، وفي كل عام كان يفكر أكثر وأكثر لَمن يترك المملكة بعد وفاته.

وأخيرًا قرر الملك اختيار إحدى بنات رعاياه، لتحل محل الأميرة المتوفاة، وتصبح ابنته بالتبنِّي، وبهذا يستطيع الملك بعد وفاته أن يترك العرش الملكي وثروته لها.

ابتهج الناس بقرار الملك هذا، وتوقعوا أن يقع اختياره على فتاة رفيعة المستوى.

هتف المبشرون والمنادون والرسل المنتشرون في اتجاهات مختلفة في جميع أنحاء البلاد بأن الملك الأب يريد اختيار ابنة لنفسه، وهي التي ستصبح الملكة من بعده، وفي النهاية، الملكة محبوبة الدولة بأكملها.

في اليوم المحدد، اجتمعت فتيات صغيرات من جميع أنحاء الولاية في القصر الملكي. محاسنهن مختلفة، وكل واحدة أكثر سحرًا من الأخرى، وجميع البنات نبيلات بناتُ نبلاء.

ينظر الملك العجوز إلى الحسناوات ويفكر: من يختار؟ من يفضل؟ كلهن جميلات، كلهن نبيلات. إذا أخذت إحداهن لتصبح ابنتي، فستشعر الأخريات بالإهانة. ماذا يمكن أن أفعل؟

كان قلب الملك الطيب يخشى أن يسيء إلى أحد أو يؤذيه. بمثل هذه الأفكار، ذهب الملك ذو اللحية الفضية إلى حجرة نومه ورأى امرأة بيضاء تقف في زاوية حجرة نومه الملكية، كما لو كانت منسوجة من أشعة الشمس. وجهها يلمع وجسدها وملابسها رائعة. حزم كاملة من الضوء تخرج من عينيها.

تراجع الملك في ذهول أمامها. بسط يديه.

سأل الضيفة المشرقة: «من أنتِ أيتها المخلوقة المجهولة؟»

أجابت: «أنا جنية طيبة، اسمي الساحرة سعادة، اكتشفت أنك قررت البحث عن ابنة لتحل محل الأميرة المتوفاة. ولذا جئت لأخبرك أنني أريد أن أقدم لك هدية. أنت تستحقها أيها الملك؛ لأنك ذو قلب طيب وتهتم برعاياك.»

سأل الملك مندهشًا: «هدية؟ ماذا ستعطيني أيتها الجنية؟»

قالت: «سأعطيك هذه الابنة التي ستجعلك أسعد أب في العالم؛ سأختار لك الابنة التي ستحبها على الفور بالطريقة التي أحببت بها ابنتك الحبيبة المتوفاة، وستحل ابنتك بالتبني محل أميرتك الفقيدة.»

صاح الملك: «أوه! أيتها الجنية أخبريني أيٌّ من الفتيات اللاتي جئن إلى القصر هي تلك التي قصدتِها لتكون ابنة؟»

قالت: «أنصت إليَّ أيها الملك، من بين الفتيات اللاتي سيأتين إلى القصر غدًا، ستكون هناك فتاة تقف على كتفها حمامة بيضاء بمجرد عبورها عتبة قصرك. تلك يا ملكي، ستجعلها ابنتك، انتبه ولا تخطئ.»

وبعد أن انتهت الجنية سعادة، اختفت من حجرة نوم الملك.

لم يستطع الملك ذو اللحية الفضية النوم طوال الليل. ظل يفكر في تلك الفتاة التي وعدته الجنية بأنها هدية في صورة ابنة. وفي صباح اليوم التالي نهض على عجل، وارتدى ملابسه وخرج إلى القاعة الملكية، حيث كانت الفتيات المتجمعات في انتظاره بالفعل.

سار الملك عبر القاعة مرة، ثم مرتين، ونظر إلى الفتيات، ومسَّد لحيته الطويلة ولم يقُل شيئًا. وفجأة رأى الملك من نافذة القاعة أن بوابات القلعة قد انفتحت ودخلت عربة إلى

البلاط الملكي. على العربة يوجد فحم، وكانت العربة تقودها فتاة تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، نحيفة، جائعة، سوداء؛ باختصار كانت قبيحة تمامًا. وعلى كتف الفتاة تقف حمامة بيضاء. وحينها سمع الملك صوتًا بشريًّا من الحمامة يقول: «ها هي ابنتك أيها الملك. خذها واعلم أنها أفضل من كل هؤلاء الجميلات اللاتي جمعت في قصرك.»

غضب الملك، وعلى الرغم من كل لطفه، عاتَب الجنية قائلًا: «حسنًا، لقد سخِرت مني أيتها الجنية، انظري إلى الفتاة القبيحة التي اخترتِها لي ابنة!»

قالت له الجنية، أو بالأحرى الحمامة البيضاء: «انتظر أيها الملك! انتظر! يجب أن تنظر إليها مرة أخرى.»

لكن الملك قال في نفسه: «لا يوجد ما أفعله.»

أمر الملك عبيده بأخذ الفتاة القبيحة بهدوء إلى القصر، وأمر أن ترتدي ملابس أفضل، وأن تنتظر مع الفتيات النبيلات الجميلات في القاعة الأمامية.

وخرج هو نفسه إلى الحديقة، ولم يجرؤ على تسمية مثل هذه الفتاة ذات المظهر العادي بابنته. خرج إلى الحديقة ورأى طفلين جالسين بجوار السياج، يرتديان ثيابًا رثة وأحذية قديمة، ووجوههما مشرقة ومبهجة، وكأنهما في عطلة رائعة.

ذهب الملك إليهما: «ما الذي يسعدكما يا أطفال؟»

لم يرَ الطفلان الملك من قبل عن قرب، ومن ثَم لم يتعرفا عليه.

أجابا: «نحن ننتظر عاملة الفحم الصغيرة، إنها تأخذ الفحم للمطبخ الملكي وتبيعه وتعود دائمًا بأيدٍ ممتلئة بجميع أنواع الحلويات التي يقدمها لها طباخ الملك. ماريا الطيبة تعطينا كل شيء.»

أصبح الملك مهتمًّا وسأل: «هي فقيرة وتعطيكم كل شيء؟»

أجاب الطفلان في صوت واحد: «كل شيء! تقول إن العطاء أفضل مائة مرة من الأخذ.»

أومأ الملك برأسه ومضى. رأى عند البوابة امرأة عجوزًا رديئة الثياب جالسة بلا حراك، وعيناها مثبتتان على جهة بعيدة.

التفت إليها الملك، وقد أدهشه جدًّا أن المرأة لم تقُم حتى عندما اقترب منها: «من تنتظرين يا عزيزتي؟»

أجابت: «أنتظر عاملة الفحم ماريا. سوف تغادر القصر قريبًا بعد أن تبيع الفحم. الآن ستعود، وسنذهب معًا لشراء الخبز واللحوم. هي تأتي معي منذ أن أُصِبت بالعمى.»

اندهش الملك ونظر بشفقه إليها: «إذن أنتِ عمياء!»

«نعم أيها الرجل الطيب، لقد أُصِبت بالعمى منذ نحو ثلاث سنوات، ومنذ ذلك الحين تساعدني ماريا التي تعمل لدى عشرة أشخاص لإطعامي.»

سأل الملك باهتمام: «إنها ابنتكِ بالطبع؟»

«أوه، كلا، أيها الرجل الطيب. ماريا غريبة عني. هي يتيمة جاءت لتساعدني، بعد أن علمت أن أبنائي قد تخلوا عني، ولا يريدون إطعام أمهم الكفيفة المسنة.»

سأل الملك ذو اللحية الفضية المرأة مرة أخرى: «ولكن لماذا؟ إذا كنتِ محتاجة إلى هذا الحد، فلماذا لم تأتِ إلى الملك؟ الملك، كما سمعت، على استعداد تام لمساعدة جميع الفقراء.»

أجابت المرأة العمياء: «آه يا سيدي، كنت سأذهب إلى الملك، لكن ماريا لا تسمح لي بذلك. تقول ماريا إنه من المخزي أن نسأل ما دامت هناك قوة للعمل، وإن ملكنا لديه العديد من الفقراء الذين هم أسوأ وأفقر منا. هذه هي ماريا!»

هكذا اختتمت الكفيفة كلامها بفخر ملحوظ.

امتلأ قلب الملك ذي اللحية البيضاء بالسعادة؛ فقد فهم الفتاة عاملة الفحم التي أخبره عنها الأطفال وهذه المرأة العمياء.

وفي تلك اللحظة، سمع صوتًا حفيفًا طفيفًا جعله يستدير. كان رجلًا عجوزًا لم يتعرف على الملك، وسأله عما إذا كان قد رأى عاملة الفحم الصغيرة؟ لم يستطع الملك مقاومة سؤال العجوز عن سبب اهتمامه بعاملة الفحم.

قال العجوز: «إنها فتاة ذكية وعاقلة جدًّا. التحدث إليها هو متعة كبيرة لي أيها العجوز. إنها تعرف كل شيء، ومهتمة بكل شيء! من الصعب أن تجد واحدة مثلها. إنه لأمر مؤسف، فهي فقيرة ومن عائلة متواضعة. ووفقًا لعقلها وقلبها، فهي تستحق نصيبًا أفضل من أن تكون عاملة منجم فحم بسيطة.»

في هذا الوقت، سمع الملك ضجيجًا من ناحية القصر. اقترب الملك من القصر دون أن يلاحظه أحد، وتوقف عند النافذة المفتوحة للقاعة، حيث كانت الفتيات الجميلات مجتمعات. توقف وذُهل مما رأى. أين ذهبت الوجوه الساحرة للجميلات؟ أين ذهبت الابتسامات الرقيقة من شفاههن الوردية؟ أين ذهب لون الخدود القِرمزي الذي جعلهن مثل ورود الربيع؟

كانت وجوه الفتيات الجميلات خضراء من الغضب، وعيونهن تبرق، والشفاه ملتوية من الغضب. وبأصوات مكتومة، صاحت الجميلات الجدد بعضهن على بعض وصرخن.

أرادت كلٌّ منهن أن تكون ملكة؛ لدرجة أنهن نسين أنفسهن، وحاولن قدر الإمكان خداع وإهانة إحداهن الأخرى. الحسد والحقد جعلا وجوههن الجميلة قبيحة.

وبين هؤلاء، كانت هناك فتاة وديعة وحنونة وذات بشرة داكنة تسير بخدين متوردين بلطف، وتنظر بعينيها الكبيرتين اللطيفتين، وجلست حمامة على كتفها. اقتربت الفتاة من واحدة أو أخرى من الجميلات الحقودات وبصبر وديع توسلت أن تهدأ، وألا تتشاجر، فقط ترضى بقدرها.

قالت بصوت رقيق ولطيف: «يمكنكِ أن تُسعدي الناس دون أن تكوني ملكة.»

وتحوَّل وجه الفتاة الذي كان قبيحًا ليصبح انعكاسًا لروحها الجميلة.

لم يستطع الملك صبرًا. دخل القاعة، وذهب إلى ماريا، عاملة الفحم، وأمسك بيدها وقال بصوت مرتفع: «هذه هي ابنتي! هي وحدها تستحق أن تحل محل ابنتي المتوفَّاة، هي وحدها تستحق أن تصبح ملكة! أيتها الجنية سعادة! أشكرك على الهدية الرائعة. لقد أعطيتِني ماريا ذات القلب النادر.»

وبعد قوله هذا انحنى الملك ذو اللحية الفضية أمام الحمامة البيضاء.

وأصبحت عاملة الفحم الصغيرة أميرة. أخذت المرأة العمياء إلى قصرها كي تعتني بها مثل ابنتها، وأحاطت نفسها بالأطفال الفقراء، وعلَّمتهم وابتكرت لهم أنشطة ترفيهية متنوعة، واستدعت كبار السن إلى القصر، وساعدت الملك ذا اللحية الفضية في أعماله الصالحة. اعتنت الأميرة الطيبة بكل الناس، وظل الملك ذو اللحية الفضية سعيدًا بها طوال حياته.

الحكاية السادسة عشرة: حسناء

على جبل مرتفع بين السحب الثلجية، بين السماء الزرقاء، أُقيمَت غرفة مغلقة. تفوح منها رائحة العنبر والورد من بعيد. تومض ألسنة اللهب الزرقاء بهدوء في المباخر الذهبية، فتنشر رائحة عبِقة. تتصاعد الرائحة وصولًا إلى القبة الذهبية بضباب أزرق. وفي كل مكان؛ على الأرض، على الجدران، على السقف؛ ورود، ورود، ورود ... غابة كاملة من الورود، بحر كامل من الورود.

تعيش حسناء في حجرة وردية، وهي فتاة أجمل من الورود، أجمل من قصر مهيب، أجمل من العالم كله. خمس أخوات خادمات ذوات شعر ذهبي يحرسن كل خطوة من خطوات ملكتهن. ينظرن إلى عينَيها دون أن يطرفن، ينظرن ويغنين فقط.

تستمع حسناء طوال اليوم إلى غناء الخادمات، وتُعجب بكيفية تضفير أكاليل الزهور العطرة، والمشي على ألواح الرخام في قصرها.

لكن حسناء تشعر بالملل ...

مَلَّت حسناء من العنبر والورود وغناء الصديقات ذوات الشعر الذهبي. تريد أن تخترق الأسوار المقدسة لتكتشف ما يحدث خلف قصرها في الوادي. فعلى كل حال، تغني الخادمات ذوات الشعر الذهبي أن هناك أناسًا في العالم، وهناك طيورًا وحيوانات، وهي لا تعرف من هم، وماذا، وكيف هم ...

فقط لو تستطيع أن تنظر بعين واحدة، ولو للحظة ترفرف خارج الغرفة المغلقة دون حاشية مزعجة لتنظر إلى العالم! والخادمات ذوات الشعر الذهبي، كما لو أنهن عن قصد، يغنين عن الشمس الساطعة، وعن العالم العجيب، وعن أعياد الناس وعن الأشخاص المرحين الذين يحلمون برؤيتها ليلَ نهار.

في إحدى المرات فكرت حسناء وأعربت عن أفكارها لصديقاتها: إذا كان هؤلاء المساكين يحلمون برؤيتي فلمَ لا أظهر لهم؟

تأوهوا وتأوهوا وانسكبت الدموع من أعينهن: «ماذا! ماذا! ماذا تقصدين أيتها الملكة؟ عودي إلى رشدك! كيف تظهرين للناس؟ إنهم يغنون ويمدحونك فقط لأنهم لا يرونك ويخمنون فقط وجودك. وعلى الرغم من كل الفضائل التي تأسرين بها العالم، الناس يعتبرونك في خيالهم أكثر جمالًا وقوة مما أنتِ عليه حقًّا. وبمجرد أن تُظهري لهم نفسك، وتظهري أمام أعينهم، سيتوقفون عن عبادتك، وسيبدءون في البحث عن أوجه القصور المختلفة فيك، ولن يظنوا أنكِ ساحرة وفاتنة كما كان من قبل، وسوف يتوقف إعجابهم بكِ. هؤلاء هم الناس! إنهم يحبون كل شيء بعيد، غير معروف، وما إن يقترب هذا المجهول البعيد منهم، فإنهم يجحدون ولا يريدون معرفته بشكل كافٍ.»

ضحكت حسناء. كيف لا يُعجبون بها؟ كيف يمكن للمرء أن يتجاهل جمال الكون؟ كيف يمكن للمرء ألا يُعجب بها وهي المالك الأول والوحيد لكل السحر في العالم؟

نظرت الملكة إلى المرآة وعكست المرآة وجهها، أبيض كالثلج، عكست خدودًا قرمزية مثل بتلات وردية، وعينين زرقاوين مثل نجمتين مُشعَّتين، وشعرًا ذهبيًّا مثل حزمة من ضوء الشمس، وشفاهًا أرجوانية مثل زهرة الخشخاش ... تغني الخادمات عن جمال الملكة، وهكذا رأت نفسها في انعكاس المرآة.

وفجأة نشأت رغبة شديدة في رأس الملكة الجميلة؛ وهي أن تذهب إلى الناس وتخبرهم أن ينظروا إليها ليطالعوا جمالها. وقالت في نفسها: أنا أجمل من الدنيا كلها. أنا الجمال نفسه. أحبني. واعترف بأنني أفضل عن قرب. أنا حسناء ولا أحمل هذا الاسم من فراغ.

في ذلك المساء كانت الملكة حزينة وتفكر. مستلقية على سريرها قبل النوم، وحولها الورود ورائحة العنبر، أدارت حسناء الخاتم الثمين في يديها لفترة طويلة. كان لهذا الخاتم قُوًى خارقة. أعطته لها الساحرة تروث عند الولادة. يمكنها أن تضع الخاتم الثمين على شفتيها، وستنهار كل الحواجز أمام حسناء، ولكن ليس قبل العام السابع عشر من حياة الملكة حسناء ... كان اليوم عيد ميلاد الملكة، وخاتم الحقيقة أخيرًا سيعمل في يدها. هذا ما تذكرته حسناء عندما ذهبت إلى الفراش. الليلة يجب أن يقوم خاتم الحقيقة بخدمتها. وتظاهرت حسناء بالنوم لخداع خادماتها ذوات الشعر الذهبي.

همست إحداهن للأخرى عندما رأين عينَي الملكة مغلقتين: «لقد نامت حسناء».

وذهبن إلى أَسرَّتهن.

وهذا ما كانت تريده حسناء.

قفزت ونظرت حولها ووضعت خاتم الحقيقة على شفتَيها.

وفي نفس اللحظة، انفصل الجدار الثقيل للغرفة المقدسة، مشكلًا ممرًّا ضيقًا يؤدي مباشرة إلى الغابة. تجولت في غابة، ورأت فانوسًا غريبًا مُعلقًا بين شجرتَي صنوبر، لكن ما يربطه غير مرئي. ضوء كالحليب ينساب على الطريق، لكن لا ينيره بالكامل. هناك ضوء لكن لا معنى له. يكاد لا يوجد شيء مرئي على طول الطريق.

غضبت حسناء حتى إنها ضربت الأرض بقدَميها: «ما هذا الفانوس القبيح! إنك تلمع بشدة أكثر من حسناء نفسها!»

ضحك الفانوس: «هاهاهاها! أنا لست فانوسًا، أنا القمر. تلك مشكلتك أيتها الملكة حسناء، إذا لم تستطيعي التألق أكثر مني، أشعَّتك قد تلاشت وخفتت أمامي، يجب ألا تقابلي أخي الأكبر الشمس لأنه مشرق أكثر مني.»

شعرت حسناء بالإساءة.

سارعت مبتعدة عن سخرية القمر إلى أعماق الغابة وصرخت: «جاهل!»

مشت حسناء أكثر.

مشت ورأت دُبًّا بُنيًّا ضخمًا يجلس على عتبة بيته ويزأر بأقوى ما في رئتَيه. لم يكن لدى حسناء المحجوزة في غرفة طوال حياتها فكرة عن الحيوانات، ولم تستطع التفريق بين الدُّب والإنسان.

قالت حسناء وهي تقترب من الدب وتضع يدها على رأسه: «ما الذي يحزنك أيها الرجل المسكين؟»

ألقى الدب نظرة جانبية على يد حسناء وزأر مرة أخرى، لكن بهدوء.

قال الدب: «أنا لست رجلًا، بل وحش، وأنا جائع. لم أجد حيوانًا آكله هذه الليلة. لكنكِ هنا أخيرًا. وبهذا أتوقع عشاءً رائعًا.»

قالت حسناء بخجل وكأنها تعتذر: «آه، أنا لا أعرف كيف أطبخ للأسف، ومن غير المحتمل أن أتمكن من طهي العشاء لك.»

ضحك الدب بصوت مرتفع وقهقه: «لستِ بحاجة لطهي الطعام، فأنا لست رجلًا، بل دب. العشاء مُعَد الآن بمجرد ظهورك؛ سآكلك على العشاء، وهذا سيكفيني لمدة أسبوع على الأقل.»

حاولت حسناء أن تجادل: «اسمع! ألا تعرف من أنا؟ أنا حسناء!»

قال الدب متجهمًا: «أنا لا أعرف من تكونين. لا يهمني من أنتِ، ما دمت أستطيع إشباع جوعي.»

وكان الدب يستعد بالفعل للانقضاض على حسناء. لكنها صرخت وابتعدت.

ولحسن الحظ، كان لديها ساقان سريعان، ويمكنها أن تتفوق في الركض على الدب.

قالت لنفسها برعب: «الناس! الناس! الناس! سوف يقدرونني ويفهمونني عكس الوحش البري والقمر الغبي. سأذهب إلى الناس وأكون ملكتهم.»

سارت أسرع وأسرع إلى الأمام، وقلَّ عدد الأشجار. مرَّ الليل. اختفى القمر المائل إلى الزُّرقة في مكان ما وظهرت بدلًا منه كُرة ضخمة لامعة ومشرقة. الآن عرفت حسناء أي نوع من الكُرات هي. سمعت الكثير عن الشمس من أغاني صديقاتها الخادمات. كانت تعلم أن الشمس هي منافستها في الجمال، وقد أدركت السبب بسرعة. لكن الشمس لم تتكرَّم عليها حتى بإجابة. كانت تلمع فقط لدرجة أن عينَي الملكة المسكينة بدأت تؤلمها. أسرعت للاحتماء تحت مظلة كوخ بُني وسط الحقل.

خرج رجل من الكوخ هو وزوجته وطفلاه، وتعجبوا جميعًا من الجميلة الواقفة أمامهم وسألوها: «من أنتِ؟»

وقفت بلا حراك مثل تمثال وقالت الملكة بفخر: «أنا حسناء، جئت إليكم من الوادي كي تروني وتحبوني.»

قال الرجل صاحب الكوخ البائس مخاطبًا حسناء بمرح: «مرحبًا، ربما أنتِ العاملة الجديدة التي أرسلها لنا الأب بيتر من قرية مجاورة. لقد أتيتِ في وقت مناسب جدًّا، لدينا كثير من العمل الآن، ونحن بحاجة إلى عاملة مجتهدة وقوية وشابة. ابقَي معنا وابدئي العمل فورًا. اذهبي إلى الغابة وجُزِّي العُشب من أجل الأبقار. زوجتي لا تمتلك الوقت لذلك فهي ذاهبة لحصاد الجاودار.»

ما إن سمعت حسناء كلمات الرجل الأخيرة حتى انفجرت غضبًا وضربت الأرض بقدمَيها، وسرعان ما بكت وهي تقول: «ابتعد عني! أوَلا تعلم أن حسناء لم تُخلق للعمل والتعب، بل خُلقَت لكم أيها الأغبياء البائسون لتُعجَبوا بي وتحبوني؟»

وابتعدت عن كوخ الرجل الذي نظر إليها وقد اتسعت عيناه من الدهشة.

قال الرجل لزوجته: «إنها فتاة رائعة. نحن نحتاجها حقًّا. لكنها لا تريد العمل ولا تستطيع فعل أي شيء! من الجيد أنها ابتعدت بنفسها. أنا لا أحب الكُسالى.»

لم تسمع حسناء هذه الكلمات. كانت قد ابتعدت بالفعل. نزلت الآن إلى سفح الجبل، إلى وادٍ صاخب في وسطه مباني المدينة الشاهقة.

كانت مدينة غنية، على ما يبدو أنها العاصمة.

قالت وهي تقترب من بوابات المدينة: «يعيش الأغنياء هناك. والأثرياء سيكونون قادرين على تقديري أفضل من الفقراء الذين يعانون من الاكتئاب الشديد بسبب الهموم والاحتياجات ولا يهتمون بحسناء. سأذهب إلى الأغنياء.»

ودخلت عبر البوابة.

في ساحة البلدة، يوجد منزل ضخم مضاء بآلاف الأضواء. اجتمعت هنا جميع العائلات النبيلة في المدينة لقضاء العطلة. ولكن نظرًا لأنه دائمًا ما يكون مملًّا في التجمعات الصاخبة، فقد شعر الضيوف بالملل هنا أيضًا.

رقصوا على مضض. تحدثوا ببطء. ومن ثَم كان الجميع سعداء للغاية عندما لاحظوا ظهور حسناء. لم يكن عليها أن تُعرف نفسها. عرفها الجميع على الفور. سمع الجميع عنها وأعجبوا بها لفترة طويلة، منذ بداية وجود العالم. وبصرخات فرحة صاخبة صحِبوها إلى أفضل مكان، وأحاطوا بها وبدءوا في الانحناء لها مثل الملكة.

أُعجب بها الجميع — رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا — جميعهم مدحوا حسناء. انتصرت حسناء.

فكرت: «كان من الممكن أن أفعل هذا منذ وقت طويل! كيف لم يخطر ببالي من قبلُ أن أهرب من غرفتي المغلقة إلى هؤلاء الأشخاص الأعزَّاء والممتنين.»

لكن مرَّت ساعة ثم ثانية، ثم ثالثة. كل شيء ممل في العالم. حتى حسناء. سئم الناس من تأملها، بلا حراك، برَتابة، كما لو كانت مجمَّدة في وضعها الرائع، مثل تمثال رخامي على العرش. وهكذا في البداية بخجل، ثم بدت أصوات أكثر إصرارًا وجرأة: «غَني لنا شيئًا يا حسناء! أنتِ جميلة جدًّا لدرجة أن كل ما تفعلينه يجب أن يكون جميلًا مثلكِ.»

«أو اعزفي! أصابعك رفيعة وطويلة مصنوعة للأوتار خصوصًا.»

«أو احكي لنا قصةً خرافية رائعة. لا بد أنكِ تملكين عقلًا شاعرًا تحت شَعرك الذهبي المتموج! لا بد أنكِ تؤلِّفين قصصًا خيالية وتنظمين القصائد.»

«لا، لا، بل ارسمي على القماش، ارسمي نفسك سوف تكون صورة رائعة. لا بد أنكِ تجيدين الرسم بالفرشاة.»

«الأفضل أن تنزلي عن عرشك وترقصي لنا. أنتِ تعرفين بالتأكيد كيف ترقصين بأسلوب ساحر.»

لكن حسناء لم تتحرك. لم يكن بإمكانها الغناء أو العزف أو تأليف القصص الخيالية أو نَظْم القصائد أو رسم الصور أو حتى الرقص. لم تستطع فعل أي شيء.

شعرت بالمرارة والخجل لأنها كانت متكبرة جدًّا. وكلما بدت طلبات من حولها أكثر إصرارًا، أصبح وجهها الجميل أكثر شُحوبًا.

صاح أحدهم بجرأة: «ما هذا الجمال الذي لا يعرف كيف يتجلَّى في أي شيء!»

ووسط الضوضاء، ارتفعت أصوات أخرى: «لسنا بحاجة إلى مثل هذا الجمال!»

نزلت حسناء من العرش شاحبةً مثل الموتى، وغادرت القاعة.

وعلى عتبة القصر خلعت الخاتم الثمين من إصبعها ووضعته على شَفتيها، وتمنَّت بصوت مرتفع أن تجد نفسها مرة أخرى في غرفتها المغلقة.

وفي لحظة واحدة، نُقلت حسناء إلى هناك على أجنحة غير مرئية.

قابلتها الخادمات ذوات الشعر الذهبي والساحرة حقيقة نفسها على عتبة مسكنها.

جثت حسناء على ركبتَيها أمام الساحرة الطيبة وصرخت وهي تبكي: «خذي جمالي وامنحيني هدية أخرى لجذب الناس إليَّ. اجعليني مهمة ومفيدة، وامنحيني القدرة على العمل وجذب الناس بالمعرفة والقدرات. اجعليني مفيدة للعالم كله. أصبحَت مقتنعة أن الجمال وحده لا يكفي لكسب عاطفة الناس لفترة طويلة مثل فضائل أخرى، امنحيني أي موهبة.»

ابتسمت الساحرة الطيبة، ولوحت بعصًا سحرية. وفي لحظة، وجدت حسناء الخادمات المحيطات في أيدي كلٍّ منهن قلم أو فرشاة، أو قيثارة، أو ورقة موسيقية، أو إكليل من الزهور يحتاج إلى تهذيب. وتدفقت أصوات عجيبة حول حسناء. قامت خادماتها بالغناء والرقص والعزف. تكوَّنت أمامها أشياء رائعة، بعضها مكتوب في كتاب بقلم، والبعض الآخر مرسوم على قماش على شكل صورة. كل واحدة من الخادمات صارت تمتلك الآن نوعًا من الفن.

همست حسناء بيأس من خلال دموع الحسد: «ماذا عني؟ ماذا عني؟ ماذا تركتِ لي؟ لقد أعطيتِ كل المواهب لخادماتي.»

ردت الجنية: «أترك لكِ أعظم شيء، القدرة على التأثير في خادماتك وإلهامهن. هذا كل ما يمكنني أن أعطيه لكِ. أنتِ حسناء. أنتِ الجَمَال. أنتِ قوية وعظيمة، وأنتِ وحدك من يجب أن يلهم محبي الفن. من دونكِ هم لا شيء ... يجب أن تقوديهم أنت. سوف تمنحينهم الأفكار. سأفكك جدران غرفتك، لنترك الناس يدخلون هنا متعبين، منهكين من الحياة والنضال، وأنتِ بفنونك، ستمنحينهم لحظاتٍ سعيدة من الفرح والنسيان.»

وبعد قول هذا اختفت الساحرة دون أن تترك أثرًا. وبقيت حسناء وخادماتها ذوات الشعر الذهبي في الحجرة. وفي لحظة واحدة ازدحمت الغرفة بأصوات الغناء والموسيقى.

وصار الناس يذهبون إلى هذه الغرفة في حشود سعيدة ومبتهجة ومتأثرة، مباركةً لحسناء، وفي النهاية علمت حسناء كيف تعطيهم مثل هذه السعادة ... لم يعودوا يطلبون منها هي نفسها أن تغني وتعزف وتؤلف الشعر وترقص. كانوا يعلمون أن حسناء هي الملكة، وأن خادماتها يعزفن ويرقصن حسب أوامرها، حسب إلهامها، حسب تعليماتها. أما هي فهي نفسها تتحكم في كل خطوة تخطوها خادماتها بطريقة غير مرئية.

وهكذا انتصرت حسناء ...

الحكاية السابعة عشرة: دوق الحيوانات

كان الدوق ألبرت لطيفًا وحنونًا وحكم الدولة جيدًا وبعَدل. أحبَّه الرعايا بشغف هو وزوجته الدوقة، لكنهم لم يستطيعوا أن يحبوا ابنهما الدوق رولان الشاب، بل كرهوه من كل قلوبهم. نعم، كان هناك سبب لبغضهم إياه. كان للدوق الشاب روح شريرة وقلب قاسٍ. كان الجميع ينظرون برعب إلى مستقبل سيدهم الشاب. كان الابن وريث الدوق مصدر رعب للجميع. كان عمره عشر سنوات فقط، وقد تمكن بالفعل من إظهار تصرفات قاسية وملامح شخصيته السيئة في كل مكان. قال الناس يبدو أن رولان الصغير كان على علاقة ودية مع الساحر الشرير شور. وقيل إن رولان كان غاضبًا وقاسيًا مع من حوله لأن الساحر شور وضع كثيرًا من الحقد في قلبه الشاب.

ولكن بعد ذلك حدثت مصيبة في عائلة الدوق. ماتت الدوقة.

بكى الملك بكاءً مريرًا، وكذلك بكى الشعب. فقط رولان لم يبكِ. موت والدته لم يجلب له حزنًا كبيرًا، فلم يكن يحبها، كما لم يحب أحدًا، رولان الصغير الشرير والقاسي.

الوقت يمر ويمر. وعلى مر السنين أصبح الدوق رولان أكثر صرامة وغضبًا وأكثر قوة وقسوة. فكر الأب برعب في الكيفية التي سيصبح بها ابنه حاكمًا، وكيف سيدير البلاد. زادت روح الدوق حزنًا وتعاسة بسبب أفعال رولان الشريرة، وأصبح الأمر أصعب وأصعب على الدوق بسبب أن له هذا الابن. وبشكل لا إرادي، بدأ الدوق يفكر أكثر فأكثر أنه سيكون من الجيد له أن يجد العزاء من خلال الزواج مرة ثانية، بحيث يكون لديه شخص يشاركه حزنه، ويتشاور معه، ويشكو له، ويحزن على المصير الذي منحه إياه مثل هذا الابن.

فكَّر الدوق مرارًا ثم تزوج. كانت الدوقة الشابة الجديدة لطيفة ومبهجة، مثل الشمس، ولم تكن أقل من الدوقة السابقة في اللطف والوداعة.

عاش الدوق وزوجته روحًا مع روح. وبعد عام، وُلد للزوجين صبيٌّ ساحر ذو عينَين زرقاوَين. أسماه الدوق ليو. لم يكن هناك حدود لفرحة الأب والأم بالطفل الصغير، ولا لحاشية القصر ولا حتى لكل الشعب.

لكن كان الدوق رولان يكره أخاه. منذ اليوم الأول لظهوره في العالم، كان يكرهه بكل حقد، كل الحقد الذي يملأ قلبه.

بدأ الصبي ليو يكبر، وبدأ يصبح أجمل. في سن العاشرة، صار فتًى وسيمًا لدرجة أنه كان من المستحيل أن تنظر إليه بلا فخر. وليس هناك ما يقال عن وداعة ليو ولطفه؛ إنه مثل حمامة، وليس فتًى. لديه قلب من ذهب.

بدأ الناس يقولون: «نتمنَّى أن يكون هو الدوق بدلًا من رولان الشرير.»

كان رولان هناك. وسمعهم. وأقسم ألا يتحقق هذا.

قرر بغضب: «سأقتله! سوف أدمر هذا الصبي الذي لا قيمة له.»

وبدأ على الفور في التفكير في كيفية تدمير ليو الصغير ذي العينَين الزرقاوَين.

هزم الرعد، وومض البرق، وتساقط المطر مثل الماء من الدلو. خرج الدوق العجوز للصيد والجميع قلقون بشأنه في القصر. جلسَ ليو بالقرب من المدفأة المشتعلة وفكَّر في مكان الأب الذي يحبه بشدة.

وفجأة دخل رولان إلى غرفته.

صاحَ قائلًا: «استعد للطريق يا ليو! حدثت مصيبة لوالدي، ضربه البرق، إنه يرقد مصابًا في الغابة. دعنا نصل إليه قبل فوات الأوان!»

حبس ليو دموعه المريرة وركضَ خلف أخيه على عجل قدر استطاعته.

ذهبا إلى الغابة، صماء وغير قابلة للاختراق، كثيفة ومظلمة وكئيبة، لا يمكنك الرؤية بداخلها.

سأل ليو شقيقه وهو يبكي: «أين أبي؟»

لكن رولان أجاب: «أوه، أنت أحمق! أنت مغفل يا ليو ذا العينَين الزرقاوين! لقد صدَّقت قصتي. لكن هل تعلم أن الأب لا يصطاد في هذه الغابة؟! هنا يعيش الساحر الشرير شور، صديقي العزيز. أحضرتك للعشاء أيها الفتى الغبي ليو.»

بكى ليو الصغير بمرارة، مرتجفًا من الخوف. وانفجر رولان في ضحك خبيث، الأمر الذي زاد من خوف ليو المسكين. ثم قال له رولان: «انتظر هنا، سيظهر شور ويبدأ الأكل.» وبهذه الكلمات اختفى، كما لو ابتلعته الأرض.

تُرك ليو بمفرده في غابة كثيفة ومظلمة. وقف في مكانه يبكي. فكر وهو يبكي: «لماذا يكرهني رولان؟ ما الأذى الذي ألحقته به؟ لماذا فكر في التخلص مني؟»

وتحوَّل كل شيء من حوله إلى ظلام، وظلام في الليل. حتى الرعد لا يُسمَع خلف حفيف الأشجار العملاقة الضخمة، وحتى البرق لا يُرى بين أوراق الشجر. هكذا نمت الغابة الكثيفة الرهيبة ...

وفجأة سمع ليو صوتًا مثل الأجنحة فوق رأسه. رفع رأسه، ونزل طائر ضخم على الأرض، وكان الساحر الشرير شور يركب فوقه. كان يجلس فوق الطائر ويصرخ بصوت عالٍ قائلًا: «لقد أعددت لي عشاءً رائعًا يا رولان! شكرًا رولان! شكرًا لك!»

ابتعد ليو مرتجفًا. لقد فهم نوع العشاء الذي كان شور يخبره عنه، لكنه لم يستطع الابتعاد عن الساحر.

هنا نزل الطائر مع شور إلى الأرض، وكان شور يستعد بالفعل للانقضاض على ليو والقبض عليه بأصابعه.

كان ليو حيًّا لكن مُجمَّدًا من اليأس والخوف. وفي هذا الوقت، ومن العدم، هُرع ذئب ضخم إلى شور وأخذ منه ابن الدوق الصغير.

زأر الوحش على الساحر: «غابتي وفريستي.»

وفي نفس اللحظة، حلَّق الطائر العملاق عاليًا في الهواء وهربَ مع الساحر.

تركَ ليو والذئب بمفردهما.

سأل الذئب وهو يكشف عن أنيابه: «من أين أنت يا فتى؟»

أخبر ليو الذئب بكل ما حدث له. هز الذئب رأسه الأشيب وقال: «هناك أشخاص سيئون، أعرف هذا منذ فترة طويلة، لكنني لم أسمع أبدًا عن شخص مثل شقيقك رولان. ظننت أنني سآكلك، لكن لا، أشعر بالأسف من أجلك. لديك عينان جميلتان جدًّا. سوف أريك حيواناتنا. دعنا نذهب.»

ذهبا إلى مرج الحيوانات. لم يتخلف حيوان، الكل كان موجودًا: الفهود، والأسود، والنمور، والذئاب، والثعالب، والأرانب، والمرموط، وفئران الحقل، والقرود؛ باختصار كل الحيوانات الموجودة في العالم. كانا ينتظران الفيل أيضًا، لكن لسبب ما لم يظهر.

قال الذئب: «انظروا ماذا وجدت في الغابة.»

أحاطته جميع الحيوانات وبدأت تنظر إليه. وفي تلك اللحظة أضاء شعاع القمر وجهه، وأضاءت عينا ليو الجميلتان بلون أزرق لا يُنسى. انعكس بحر كامل من المشاعر في تلك النظرة. روح ليو النقية الشفافة اللطيفة والصادقة كانت تشع منه.

تأثرت النمور الشرسة والأسود والذئاب المفترسة والضباع وبنو آوى بنظرة ليو القوية، واستلقى جميع الحيوانات مثل الخدم المطيعين عند قدمَي ليو، وبدأت في لعق يديه. نظرت إليه بعيون مخلصة. ومثل الكلاب، كانت على استعداد لاتباعه في كل مكان.

زأر الأسد: «هل هذه عينا صبي! لم أرَ مثلها في حياتي!»

وقال القرد مؤكدًا: «أنت محقٌّ يا أسد، لديه عينان مثل النجوم في السماء.»

قال الدُّب: «إنه لأمر مؤسف أن يوجد مثل هذا الصبي الصغير هنا! إنه يبدو طيبًا!»

قال الثعلب بصوت متأثر: «إنه صبي ساحر.»

اقترح النمر: «دعوه يبقى معنا ويعيش بيننا.»

صرخت جميع الحيوانات بصوت واحد حتى كادت تصم أذنَي ليو: «نعم، نعم! نتمنى أن يعيش بيننا. فليكن صديقنا!»

وعندما نظر ليو مرة أخرى إلى الحيوانات، أحاطت به جميعًا في حشد كثيف، وبدأت تزحف عند قدمَيه وتقول: «لا تتركنا، ابقَ معنا. كن دوقنا، ليو صاحب العينَين الزرقاوَين. سوف نطيع كلَّ كلماتك، كل إشارة من يدك، كل نظرة من عينَيك. فقط ابقَ معنا! كن دوقنا، ليو الصغير! كن دوق الحيوانات يا ليو! أنت تستحق أن نطيعك جميعًا، أيها الفتى النبيل اللامع! احكمنا يا ليو! سنموت بكل سرور من أجلك!»

بعد سنوات عديدة. مات الدوق العجوز، وماتت الدوقة وقد جفت دموعها بعد فقدان ليو الصغير.

أصبح رولان الدوق.

نسي ليو الصغير شيئًا فشيئًا. ونشأ ليو الصغير في الغابة ولا يزال يحكم مملكة الحيوانات. فازت الحيوانات به. لقد أحبوا دوقهم إلى ما لا نهاية. وكان هناك كثير من الحب. كان ليو حاكمًا حكيمًا وعادلًا ووديعًا. لم يُسئ إلى أحد، ولم يعاقبهم، وعاش مع رعاياه في وئام وسلام.

بمجرد أن ينشب بين الحيوانات خلاف أو قتال، يظهر ليو على الفور، ينظر بعينيه الزرقاوين الرائعتين إلى المتخاصمين ويهدأ كل شيء.

وفي يوم من الأيام، انتشر الخبر في جميع أنحاء مملكة الحيوانات أن الناس الداكنين الرهيبين هاجموا الأرض المجاورة، التي كان يحكمها الدوق رولان.

اكتشف دوق الحيوانات ذلك، وشعر بالأسف على أخيه القاسي. فرغم كل شيء هو أخوه بالدم. ودعا حيواناته قائلًا: «لنذهب ونُعين الدوق رولان على أعدائه!»

ونظرًا لمعرفتهم بما فعله رولان بأخيه ليو، فوجئت الحيوانات برغبته في مساعدة الأخ الشرير، ومع ذلك فلقد اعتادوا على طاعة سيدهم الطيب، وتبعوه بإخلاص إلى أرض رولان للمساعدة في هزيمة أعدائه.

وهناك كانت المعركة تقترب من نهايتها. انتصر الاعداء. كانت قوات رولان مشتتة. رولان نفسه كان مُلقًى جريحًا مغطًّى بالدماء.

ضرب ليو بجيشه من الحيوانات على حين غِرة. زأرت الحيوانات وزأرت، وقضت على المحتلين، وهزمت أعداء رولان. تم طُرد الأعداء من الأراضي على مسافة بعيدة، وضربوا، ودمروا، وهزموا.

هزم ليو الأعداء، واقترب من أخيه وهو بالكاد يتنفس. رأى رولان ليو، ومدَّ يديه إليه، هامسًا بصوت لا يكاد يُسمَع: «لقد سببت لك كثيرًا من الحزن يا ليو. أردت قتلك بدافع الحسد والحقد. وكافأتني باللطف على شرِّي. هل ستسامحني يا ليو؟»

رد ليو: «أنا أسامحك على كل شيء عن طِيب خاطر يا رولان!»

وعانق ليو أخاه.

علم رعايا رولان أن شقيقه ليو، الذي اعتبروه ميتًا منذ فترة طويلة، قد عاد، وأحاطوا به بصيحات جليلة: «أخيرًا عدت إلينا! أخيرًا يا ليو! الآن سوف تكون سيدنا الحبيب! سنحيطك بالعناية والمودة، ونجعلك تنسى كل تلك الأحزان التي كان عليك تحمُّلها في طفولتك. يعيش ليو، يعيش دوقنا الحبيب!»

لكن ليو ظل صامتًا. نظر إلى الناس بعينين حزينتين. وخلفه تحتشد حيواناته، حزينة كئيبة مليئة بالشوق. تذرف الأسود والنمور والذئاب والدببة والضباع دموعًا صامتة.

انتحبت الحيوانات حتى الصغير منها، الأرانب والغرير والفئران.

توسلوا إليه باكين: «لا تتركنا أيها الدوق ليو! لا تغادر.»

رنَّ شيء ما في قلب ليو وكأنه تمزق، وبصوت عالٍ قال للناس: «لن أترك حيواناتي العزيزة من أجل أي شيء في العالم. لقد راعوني في لحظة مريرة، ومنحوني الفرح والحب. سأبقى معهم حتى يوم موتي! ستجدون دوقًا آخر لأنفسكم!»

قال هذا وعاد إلى الغابة الكثيفة، إلى دوقيةِ ليو أزرق العينين. وعلى الرغم من أنه كان مؤلمًا له أن ينفصل عن الناس، فإنه تركهم ليكون مع الحيوانات التي كانت تُدفئ حياته المريرة بالحب والطاعة والعناية والمودة.

الحكاية الثامنة عشرة: حكاية إيفان الذي بحث عن السعادة

عاش إيفان في هذا العالم.

عاش في قرية غنية، ذات شوارع واسعة ممتدة، ومنازل جديدة من الألواح الخشبية، وباحات نظيفة، وحدائق مظللة أمام كل منزل؛ باختصار إنها قرية يعيش الجميع فيها سعداء وليس لديهم ما يقلقهم.

إيفان نفسه كان شابًّا قويًّا ووسيمًا.

كان لإيفان أب وأم وأخت وأخ. لدى إيفان كل ما يحتاجه الإنسان في الحياة: رداء جديد جيد، وحذاء، وقبعته دائمًا ما تكون جديدة تمامًا. وكان دائمًا شبعانًا ولديه مال. ماذا يريد أكثر من ذلك؟

سيعيش إيفان ويعيش، سعيدًا بكل النعم: والدَين طيبَين، أخ وأخت محبين، رخاء ورضًا، كل شيء لديه.

لم يكن هناك ما يعكر صفوه على الإطلاق.

وذات مرة سمع إيفان الناس يتجادلون حول السعادة، سألهم قائلًا: «ما السعادة؟»

شرحوا له: «إنه شيء تبحث عنه، لكنك لن تجده. تحاول الإمساك به، لكنك لن تمسك به. تحاول، لكنك لن تمسك به. وسيأتي عندما لا تتوقعه على الإطلاق، ويستقر بطريقة لا تتحكم فيها، حتى يغادر من تلقاء نفسه.»

هذا ما أوضحه الناس لإيفان.

قال إيفان: «حسنًا، هذا هراء! إذا أردت، فسأجد السعادة. سأمسكها وأحضرها معي.»

جادله الناس قائلين: «لن تحضرها!»

اعترض قائلًا: «سأحضرها!»

كان عنيدًا جدًّا، وكل ما يجول برأسه يقوم به على الفور. حتى هذه المرة.

وضع قبعة، وربط على كتفَيه حقيبة ظهر، وأخذَ عصًا وذهب إيفان العنيد ليجوب العالم.

ذهب يبحث عن السعادة.

يسير على طول الطريق السريع وينظر إلى أسفل، عند قدمَيه، ليرى ما إذا كان شخص ما قد أسقط السعادة بالمصادفة.

مشى ومشى وذهب إلى مدينة كبيرة. جلس يستريح في المدينة.

جلس وغنى أغنية. أوه إن غناءه جيد! غنى عن قرية كبيرة، عن الحدائق المظللة، عن نهر أزرق جارٍ. صوته حنون جدًّا. إيفان لديه صوت رائع. اجتمع الكل حوله. حشد غفير من الناس. يقفون حوله، صامتين، ينظرون مباشرةً إلى فمه، يستمعون.

لكن إيفان لم يهتم بالحشد، فهو يُغني لنفسه ويغني.

وفجأةً خرج رجل قصير بدين من بين الحشد، ذهب إلى إيفان، وربَّت على كتفه بطريقة ودية وقال: «لقد سمعت كثيرًا من الأصوات في حياتي، لكنني لم أسمع مثل صوتك من قبل. إنك مثل عندليب. يجب أن نتناول الطعام حتى يمكننا الاستمرار. مثل هذا الصوت كنز دفين. إذا أردت، يمكنني إلباسك الحرير والمخمل. سأجعلك غنيًّا، وسأمنحك كثيرًا من المال بحيث لا تتحمله جميع جيوبك. وما عليك إلا أن تغني وتغني. وسأرتب الأمر حتى يأتي الملوك والأمراء وكبار الشخصيات للاستماع إليك. إذا أردتهم أن يبكوا، فستغني أغنية حزينة، وإذا أردت أن يبتهجوا فستغني أغنية سعيدة ... ومجدك كمطرب رائع سوف يلفُّ جميع أنحاء العالم. في أي مكان، وفي كل مكان سيقابلك الناس باحترام وينحنون بترحيب. ولن تُضطر إلى فعل أي شيء من أجل هذا، فقط تغني وتغني ...»

لم يسَع إيفان إلا أن نظر إلى الرجل القصير البدين وضحك. هل يحتاج حقًّا إلى الشرف والمجد والذهب بينما هو ذاهب للبحث عن السعادة!

وبعد أن قام إيفان من مقعده، رفع قبعته وابتعد عن المدينة على طول الطريق المؤدية إلى الغابة.

صادفَ إيفان الأشجار الضخمة العملاقة في الطريق. امتدت الفروع الخضراء إليه. نظر إيفان إلى الأغصان وفكر: «هل علقت السعادة في مكان ما في الأغصان؟»

نظر، ونظر ... ولكن لا توجد سعادة. لكن هناك شيئًا آخر لفت انتباه إيفان.

فارس على حصان سريع يقفز من بقعة إلى أخرى. الفارس يرتدي ملابس ملَكية فخمة، في رداء رائع بحزام ذهبي. ويعتمر على رأسه قبعة باهظة الثمن تعلوها ريشة.

وجه الفارس مغطًّى بشحوب قاتل. الخوف يملأ عينيه. رأى إيفان أن دُبًّا بُنيًّا ضخمًا يطارد الفارس، لحق الدب بالحصان، واندفع نحوه من الخلف وأمسك على الفور بالفارس بمخالبه الرهيبة. سمع إيفان صرخة يائسة، ثم هدير الوحش الذي يصم الآذان ...

وجد إيفان نفسه على بعد خطوتَين، فاستلَّ السيف من حزام الفارس المذهول، وبكل قوته ضرب الدب على رأسه.

هز هديرٌ جديد يصم الآذان الهواء، وفي الدقيقة التالية أصبح الدب الميت ممددًا على الأرض.

نزل الفارس من حصانه واقترب من إيفان.

قال بصوت مضطرب: «لقد أنقذت حياتي، لقد أنقذت حياة الملك. أنا الملك وأريد أن أكافئك على شجاعتك، على إنجازك. تعالَ معي إلى عاصمتي. ستعيش معي بشرف ملكي، وسأمنحك السلطة الملكية، وبعد وفاتي ستكون ملك دولتي.»

لكن إيفان اكتفى فقط بهز رأسه ردًّا على ذلك.

لماذا يحتاج إلى المُلك؟ لقد ذهب للبحث عن السعادة وليس عن المُلك.

رفضَ إيفان التكريم المقدَّم له، وانحنى لتحية الملك.

كان عنيدًا جدًّا، ويريد حقًّا أن يجد السعادة.

يمضي، يلوح بعصاه ويحدق في الأنحاء.

خرج من الغابة. رأى القرية في نهاية الطريق.

يوجد بئر على حافة القرية.

هناك فتاة تقف بجانب البئر، جمالها لا يمكن للمرء أن يصفه في قصة خيالية.

نظرت الجميلة إلى إيفان. أحبته منذ النظرة الأولى؛ إنه طويل، ووسيم، وعريض الكتفين، كالأبطال.

وكلما نظرت إليه الفتاة، زاد إعجابها به.

غنَّى إيفان أغنيته، وغرق قلب الجميلة.

إما أن عندليبًا يغني وإما ملاكًا من السماء.

أمسكت الفتاة بيد المُغني الوسيم وقالت: «لقد حلمت بزوج مثلك لفترة طويلة. أنت خطيبي. دعنا نذهب إلى والدك وأمك ليباركا الزواج.»

نظر إيفان إلى الفتاة الجميلة، وأُعجبَ بها وقد صُدم بشدة من جمال الفتاة، ولكنه اكتفى فقط بهز رأسه.

قال بصوت منخفض وقلبه لا يتوقف عن الخفقان: «لا أستطيع البقاء معك، يجب أن أسافر، لديَّ عمل.»

لقد أحب الجميلة حقًّا. إنه لأمر مؤسف أن يتركها.

ومع ذلك غادر إيفان العنيد. ذهب يبحث عن السعادة.

يمشي ويفتش. يبحث أثناء المشي.

يبحث في الغابات، في الحقول، في القرى والبلاد والمدن الكبيرة، في الساحات وفي الشوارع ... ومع ذلك لم يجدها.

مشى، ومشى. طاف العالم كله، وعاد مرة أخرى إلى قريته الأصلية.

لقد مرَّت سنواتٌ عديدة منذ أن غادر بحثًا عن السعادة. مات الوالدان، وتزوجت الأخت، وتزوج الأخ.

وبمجرد أن عرفوا من هو في القرية كان قد أصبح كبيرًا في السن، ونمت لحيته.

بدأ بمرارة يوبخ الناس الذين تحدث معهم قبل رحيله: «لم أجد السعادة ... بحثت في كل مكان ... لقد خدعتموني! لا توجد سعادة على الأرض! هناك قصص عن السعادة. هناك مجد، هناك قوة، هناك حب، لكن لا توجد سعادة!»

وبدأ يخبر الناس كيف قدموا له المجد والقوة والحب. أخبر إيفان الناس عن لقائه مع الرجل القصير البدين، ومع الملك الشاب، ومع الفتاة الجميلة.

وعندما علم الناس هزوا رءوسهم.

قالوا: «أنت غبي، غبي يا إيفان. لقد خرجت للعالم، لكنك لم تكتسب الحكمة، كانت السعادة بين يديك، وأنت نفسك مَن أضعتها. جاءتك ثلاث مرات، وثلاث مرات دفعتها بعيدًا عنك.»

وهز الناس رءوسهم مستائين من إيفان الغبي.

قالوا بعضهم لبعض: «لا، السعادة ليست للأغبياء.»

نظر إليهم إيفان وتساءل: «أين رأوا السعادة في قصصه؟»

وعندما غادر الناس، جلس إيفان على حجر على حافة الغابة، وبدأ يتذكر لقاءاته التي تحدث عنها للتو. جلس وبدأ يفكر لماذا قرر الناس أنه أبعد السعادة ثلاث مرات.

فكر وفكر لكنه لم يصل لشيء.

كان إيفان غبيًّا وعنيدًا.

غبيًّا جدًّا.

هنـــداوي